مكتبة مصر

علاء الخضري

# رحلة الحجاز

إبراهيم عبد القادر المازني

# رحلة الحجاز

تأليف

إبراهيم عبد القادر المازنى

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى بالفجالة — القاهرة

ت: ٢٥٩٠٨٩٢٠

# الإهــــــداء

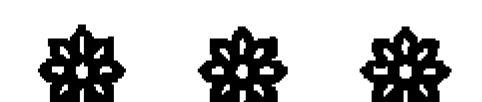
«إلى التى تفــرح لفرحــى وتحــزن لحــزنى

والتى أســىء إليها فتعفو، وأرهقها فتحتمــل،

والتى لا تكون معى إلا راضية عنى مباهية لى

إلى أمى ...» .

إبراهيم عبد القادر المازنى



# المقدمة

صار من الضرورى أن يكون لهذا الكتاب الجديد الذى تقدّمه "دار مصر للطباعة" للمرحوم الكاتب الشاعر الصحفى "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" تقديم واف يكشف الضوء على ظروف كتابته وعصره:

دُعى "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" مع لفيف من كبار شخصيات المملكة المصرية فى ذلك الوقت ـ عام ثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد ـ منذ أكثر من ثمانين عاما لأداء العُمْرة، وكانت السيطرة مطلقة للإنجليز على كل أقطار الشرق الأوسط ومنها مصر، والحجاز حيث كان الإنجليز قد فضّلوا الملك عبد العزيز آل سعود ليكون ملكا على الحجاز ونجد وعسير، واستبعدوا الشريف حسين وأسرته، وجعلوا لأولاده العراق وشرق الأردن.

يعتبر الكتاب من أدب الرحلات ـ ولعله الوحيد بين كتب المازنى على كثرتها ـ الذى جعله وصفا صادقا ـ وإنْ مال كعادته إلى الفكاهة والمرح، وإدخال الروح المصرية على ما يكتب ويصف البلدان وصفا عابرا، وعادات السكان وطيب المعاملة التى لقيها الوفد المصرى، وكانت مصر فى تلك الفترة مملكة وكان الملك هو أحمد فؤاد الأول، وإن كانت الكلمة للإنجليز.

يصوّر المازنى حالة الحجاز فى مستهل القرن العشرين وبين الحربين الكبريين الأولى من ١٩١٤م ـ ١٩١٩م ـ وقبل الحرب الثانية التى كانت مابين ١٩٣٨م ـ ١٩٤٥م وانتصر الحلفاء تتزعمهم بريطانيا فى كلا الحربين، ولكن بفضل مساعدة بلدان الشرق الأوسط، العرب على وجه الخصوص، حيث سُخِّرت جميع مواردهم وأيضا شبابهم للدفاع ضد دول المحور.

مثّل المازنى فى تلك الرحلة المراسل الصحفى الناجح، ولم يتخلّ عن أسلوبه المرح الهزلى، ولاننسى ظروفه الخاصة وما يمتاز به من قِصر ملحوظ ولكنه بالغ عندما جعل درجة السلّم فى بعض القصور التى زارها بنفس طول المازنى، ولعله كان أقل من خمسين ومائة سنتيمتر بقليل، ولكن هل يكون ارتفاع الدرج بهذا القدر؟

جعل "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" نفسه من الحجاز وقبيلته "مازن" وجدّته كانت حجازية فلا حرج عليه إن كتب وبالغ، وسخر وانتقد بعض التقاليد والعادات التى لاحظها، فهو ذو أصول قديمة حجازية، فلا تثريب عليه إن هو لام أو وجّه، فهو ليس بضيف شرف وإنما جعل نفسه واحدا ممن يكتب عنه بلا حرج فى تلك الفترة التى كانت الحكومات فيها فقيرة، وربما تقترض من بعض الأغنياء ثم تردّ لهم ما اقترضته ليس فى قروضهم شىء من الربا، إنما هى معاملة إسلامية بحتة. كما ذكر أن قيمة الجنيه المصرى الورقى ـ وليس الذهب ـ كانت تعادل عشرة ريالات سعودية بالتمام والكمال. وقد ظلت هذه هى القيمة الحقيقية بعد أربعين سنة بطولها.

كانت رحلة المازنى وصحبه بالباخرة، فلم يكن الطيران قد أصبح من وسائل الانتقال فى تلك الفترة، وإنما كان وسيلة مجهزّه للحرب والـــدمار والتخريب فقط، وكانت مرافئ استقبال البواخر غير مُعدّة الإعداد الذى يضمن سلامة البواخر والحفاظ على حياة المعتمرين.

سخر "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" من مرسى جدّة، ولعله سبق عصره إذ اقترح أن يُصرف النظر عن البلدة القائمة القديمة بكل منشئاتها وأشار أن تؤسس مدينة حديثة وتخطط تخطيطا حضاريا يتناســب ومقــرّ سفارات العالم فى تلك الفترة متمركزا فى جدّه ــ وقد ظلت جدّة مقــر السفارات بعد المازنى وزيارته زمنا ليس بالقصير لمّا نقلت بعدُ إلى العاصمة الجديدة فى "الرياض"، أيضا بعد أكثر من أربعين سنة.

وذكر الجمل كوسيلة نقل بين مناطق الحجاز مــن جــدّة إلى مكــة المكرمة أو إلى المدينة المنوّرة، وعجب من براعة الأطفال فى التعلّق بذيولها ثم وصولهم إلى ظهورها وهى واقفة غير مناخة! وقرّر أن السيارات القليلة كانت ملكا للحكومة، وكان يقود بعضها صبية صغار كالصبية الــذين يقودون النوق!

ولم ينس "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" أنه من جماعة "الديوان" فانتقد الشعراء التقليدين، وزاد هجومه على الصوت الخشن غير المعبرّ، ودعا العرب إلى أن يحذوا حذو الغرب فيتجهوا إلى العمــل والعطــاء، وليهجروا الكلام والفخر الذى لا غناء فيهما.

وتظهر خفة دم "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" حيث يجعل جُلّ همّه أن يأكل أو يشرب أو يملأ بطنه من أطاييب مالذّ خاصة وأنه ورفاقه فى صحارى قفراء مدقعة من جنس ما وصفه الحطيئة قبل أكثر من ألف سنة: ..... .....      ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

ولكنه أشاد بالطّعام الذى قدّم للوفد ولغير الوفد، ونوّه بالكرم العربى بعامه وأن هذا الكرم قديم متوارث، ومن أول الصفات التى يحرص العربى عليها أنىّ وُجد، وكيفما كانت حالته المادية، فما ظنك وقد كان ورفاقه ضيوفا على حكومة الملك "عبد العزيز آل سعود" مؤسس المملكة العربية والسعودية، وإن ذكر شيئاً خفيفا عن شدّته وصلابته فى أوليات سنين حكمه.

وذكر المازنى من آل سعود ولىّ العهد الأمير سعود، والأمير فيصل ــ الذى كان ملكا فيما بعد، وأنعش المملكة، وخطا بها إلى العمران والتمّدن. وأمير جدّه، وأمير مكة، وأثنى على بسمة السعوديين الطبيعية غير المتكلفة وهدوئهم النفسى، ونبذهم للتعصّب، وتغاضيهم ــ أحيانا ــ عن بعض أخطاء ربما تكون غير مقصودة فى حقهم خاصة وأن العهد كان قريبا للعهد الذى تحكمت فيه تركيا وخلفاؤها فى مصاير الشعوب العربية، وكانت سببا فى محنهم، وكانت ترغم الناس على تملّقهم، والتقرب منهم، والدعاء لهم. وتلك كانت لمحة ذكية من لمحات "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" كصحفى لمّاح يختار ما يعجبه، ويصور ما يراه من منظوره الخاص. ولعله كان يبرّر ما يقع فيه من خطأ وهو يرى أن الله غفور وسعت رحمته كل شىء.

العادات العربية التى سجلها قلم "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" هى هى لم تتغيّر منذ قرابة قرن مضى، وسبقته قرون طوال حيث ذكر التّصبيحة، ولعلها ما عناها أبو الطيب المتنبى بقوله:

فصبّحهـــم وبُسطهـــم حرير ومسّاهـــم وبسطهـــم تـــراب

كما أعجبه، ويعجب كل من يزور الحجاز وجزيـــره العـــرب موائـــد الصحراء التى تكون فى الخلاء بعد أداء صلاة المغـــرب ثم العـــشاء، ثم يُمـــد السّماط فى الهواء الطلق، والمنعش بعد هجير النهار المشمس، ويكون ذلـــك عادة بقرب عين من عيون الماء السلسبيل.

لم ينس المازنى ملاحظته عن التاجر السورى النـــاجح "العـــوينى" الـــذى أعجب السعوديين بدأبه واعتزازه بشخصيته وأمانته.

كما لمحّ المازنى إلى أن الحكومة السعودية ــ الناشئة ــ انتوب أن تـــنفح أعضاء الوفد المصرى جوائز متعدده، ومنها الهبة المالية التى رأى المازنى فيها أنها كرشوة لا يستحقها، وعارض بشدة، ووافقه على رأيه سائر أعضاء وفد مصر الذين لم يزوروا المدينة المنوّرة، وساكنها عليه أفضل الصلاة وأزكى الـــسلام، واقترحوا أن يستبدولوا بالمال تمرا من أشهر تمور المدينة.

وقد قصّر "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" ما أُهدى إليه من الملابـــس لتتناسب مع قصر قامته!

وختم ملاحظته أن السعودية تفتح أبوابها لكل من يريد المهاجرة إليها من الجيران ولذلك فأكثر السكان يرجعون فى أصـــولهم إلى غـــير أهـــل البلـــد الأصليين.

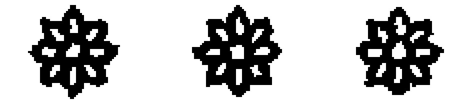
أشاد المازنى بسياسة الملك عبد العزيز آل سعود الذى آل على نفسه أنْ يجعل السعودية تلحق بركب المدنية والحضارة الحديثة وإن كان يسير بخطـــى وئيدة، ولكنها لا تتوقف، وستسبق غيرها لأنها تُعنى بالمرافق والشئون الداخلية

والعمران، ولا تكبّد شعبها بالضرائب، وإنما تنبي وتشيّد وتترقى فى شيء من التؤدة والتصميم على المضى إلى الأمام.

ولقد تحقق كل ما توقعه "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" للمملكة العربية السعودية من تقدّم وسبق قبل أن يهل القرن الحادى والعشرين الميلادى.

وأسلوب المازنى فى هذا الكتاب جاء سهل الألفاظ، مرتب الفكرة، واضحا لا غموض فيه، يصلح لأن يكون أسلوب الصحافة العصرية، لا تجد كلمة نابية، ولا فكرة مستعصبة، ولا فلسفة متعمدّة، وإنما هو تسجيل من القلب الطيب المتسامح، بعيد كل البعد عن تحيزّ أو فخر شخصى أو عنصرى. ولعل "إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى" كتب عن رحلته بعد عودته بفترة، وليس اثناء تنقلّه مع الوفد المشارك، فقد عرف إبراهيم المازنى بذاكرته القوية فى استرجاعه لما مرّ به من أحداث.

إبراهيم محمد صقر



# فى الطريق إلى ينبع

رأيت نفسى أتساءل ـــ وأنا أصافح ربان السفينه وأستفسر منه عن الجو وما ينتظر أن يكون، والبحر وهل يرجى أن يكون لينا.

«ماذا يجرى لهذه الأمة العربية التى سنشهد بعد أيام احتفالها بمبايعة ملكها؟ هل تكر على العالم بنهضة جديدة؟ أو دع الكر فقد تكون مسافة مابينها وبين العالم أطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلا، وسل هل فى وسعها أن تشق طريقها إلى منزلة من منازل الحياة العزيزة»؟

ومن عجائب النفس الإنسانية أنها تتسع لهذا الازدواج: هذا الربان أمامى أجاذبه أطراف الحديث وأنتقل معه من جد إلى هزل، وأعرّفه بهذا وذاك من إخوانى؛ وتتسع حلقة الكلام وترحب دائرته وتكثر شعابه؛ ويذهب هو يصف لى ميناءى ينبع وجده وكيف تكثر فى مدخليهما الصخور، وأنا منصت مرهف الآذان لكل حرف، ولسانى يجرى بالكلام مجاوبا أو ملاحظا أو مسائلا، وإذا بخاطر آخر يشغل من النفس الحيز الأكبر ويدور فيها ويأبى الا أن أعنى به والتفت إليه. ولعل للقلب فى أثناء ذلك التفاتة أخرى إلى الأهل والإخوان وإلى ما خلف المرء وراءه من معاهد حياته، وأغرب من هذا أن تكون الالتفاتة عمومها كالخصوص فهى لفتة شاملة محيطة، ولكل شخص ولكل حادثة حظ نسبى من البروز، ولكل ذكرى محلها ولكل عهد مكانه، بلا بخس ولا وكس. على أن هذا ليس موضع الإفاضة فى قدرة النفس على الاشتغال بأكثر من أمر واحد والانصراف إلى كل شأن كأنها متخلية له، فلنرجع إلى ماكنا فيه.

لم أجب على سؤالى وإن كان التفكير فيه قد شغلنى طول الطريق، لأن كل ما أعرفه عن العرب فى حاضرهم مستفاد مما قرأت أو سمعت، ولم أر موجبا للتعجيل بالجزم وليس بينى وبين المعاينة إلا أيام. غير أن هذا لم يعفنى من إلحاح هذا الخاطر الذى ظلت النفس تواجهنى به وترفعه قبل عينى على صور شتى. فمرة يكون السؤال كما أوردته، وتارة يكون: «هل فى الأمة العربية مادة صالحة لما تتطلبه الحياة فى العصر الحاضر من الكفاح المر» ؟

وطورا يهتف الأمل: «إن هذه الأمة تغالب طبيعة بلادها الماحقة وتصارع أهوال الصحراء فلم لا تستطيع أن تكافح المصاعب التى تحفها بها الأحوال العارضة»؟

وربما جنحت النفس إلى اليأس كلما تصورت بُعد ما بين العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة وتعذر اللحاق بهذه الشعوب التى أغذت السير قرونا وهم يحدون الإبل ويقتتلون كما كانوا يفعلون فى الجاهلية. بل كان اليأس يخامرنى كلما تخيلت الصحراء الساحقة التى يصارعونها وكنت أقول لنفسى: «هل يتاح لأمة واحدة أن تنهض مرتين وأن يكون لها فى التاريخ مدنيتان عالميتان؟ ألا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها ولا تبقى منها إلا ما يبقى من ألياف «القصب» الجافة بعد مصه أو اعتصاره»؟

وهكذا إلى غير نهاية! فما لقينا من البحر ما يصرفنى عن التفكير أو يعدل بخواطر النفس إلى مجرى آخر. ولقد كنا فى السفينة وكأننا فى بيوتنا لا على الماء، وكانت السفينة تفرق البحر وكأنها لاتمسه فلا موج ولا اهتزاز ولا دوار، حتى لقد اشتقت أن يطغى بنا قليلا ليردنا إلى التهيب، غير أن البحر خيب أملى فيه.

وقد فرحت فى أول الأمر بالفرصة التى أتاحت لى هذه الرحلة وقلت لنفسى إن المصريين يخرجون أفواجا إلى الأقطار الأخرى وصار ذلك سنة مرعية عندهم، حتى ليخيل للمرء فى مقدمة المصيف أن هذه الأمة المصرية قد أزمعت أن تهاجر إلى واد غير واديها، وكنت فى صيف كل عام أخشى أن لا يبقى فى البلاد غيرى، وأن لا يعمرها سواى، فلما عرضت هذه المناسبة للسفر إلى الحجاز فى الشتاء قلت: حسن: دقة بدقة والبادى أظلم، لقد عمرت الوادى من قبل فلتعمره الأمة الآن، لتقم عنى بواجب الحراسة التى أرانى كأنما كنت موكلا بها، فما أحسب أحداً أطاق أن يقيم كما أطقت، لكأنما كنت كلبا حارسا لا إنسانا له ديباجة تخلق، تستحق أن تتجدد.

وسرنى على الخصوص أن السفر إلى الحجاز لا إلى الغرب، ذلك أن الغرب يزور مصر، ولو شئت لقلت إنه يغزوها، فلسنا نحتاج أن نزوره، أما الحجاز فأمره مختلف جدا، ولنحن خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربى أعمق، وصلتنا به أوثق، وارتباطنا به أمتن. وما أحسبنى أبالغ حين أقول: إن مستقبل الشرق واحد وإن تفاوتت خُطا أبنائه. ومن الجهل أن نشيح بوجوهنا عنه، ومن الخرق أن نتجاهله، ومن البلادة أن ننسى أننا مرتبطون به وإن خفيت الخيوط، ومن الغفلة أن نتوهم أن الرحيل لايكون نافعا إلا إلى الغرب، وأنه لافائدة تكتسب من زيارة الشرق والاطلاع على أحواله.

وعرفت أسماء رفاقى فأطرقت أفكر: هذا أحمد زكى باشا أحدهم وهو شيخ العروبة أولا أدرى ماذا يسمونه أو يسمى نفسه؟ وهذا آخر

من المجاهدين فى سورية، وهذا ثالث كان له فى حركة الاستقلال السورى دور هو أشبه بقصص السندباد البحرى[1] فماذا عسى أن أكون بينهم؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك؟ هل فى مقدورى حي أفخر أن أدعى أنى أكثر من جندى صغير؟ ثم هؤلاء زملائى وليس بينهم إلا من هو أنشط منى وأجرأ.

واستعرت من زميل لى مبرأة، وملت إلى الحاجز على ظهر السفينة وأرهفت أقلامى، ثم لم أجد لى عملا بعد ذلك فأقمت حد المبرأة على حديد الحاجز ورحت كأنى أقطع، فسمعت قائلا يقول لى:

«رفقا بالسفينة ياصديقى، أو بمبراتك إذا كان أمر السفينة لايعنيك»! فالتفت فإذا إنجليزى فى مثل ثياب الربان.

فقلت له:

«المبراة عارية وقد آن أن أردها».

فابتسم قال: «بعد أن شحذها»؟

فسألته وأنا أشير إلى رجل فى مقدمة الباخرة:

«من هذا الرجل ذو الوجه الأمرد والنظرة الوحشية»؟

فقال: «هذا القائد... لقد كان ضابطا فى البحرية البريطانية وأبلى فى الحرب الكبرى بلاء حسناء، وقد سُرّح وهو الآن يعمل فى هذه الباخرة».

فتركته، وسرت خطوات فرأيت أمامى سلما صعدت عليه فألفيت أمامى قوارب النجاة فدنوت من أولها، وخطر لى أن أمتع نفسى بالجلوس

(١) هما نبيه بك العظمة، والأستاذ خير الدين الزركلى من المجاهدين فى القضية العربية.

فيه، فشرعت أرفع رجلى لأخطو إلى جوفه وإذا بيد على كتفى تجـذبنى وصاحبها ـــ أعنى صاحب اليد ـــ يقول:

«إنى مضطر أن أحملك على ترك هذا. وإذا كنت تريد أن تعرف شيئا فأرجو أن تسألنى...».

ولم يتم كلامه بل تركنى وقفل راجعا إلى حيث لا أعلم كأنما نـاداه أحد، وإن كنت لم أسمع صوتا، فدنوت من خادم وسألته عنه من يكون؟ فقال: «هذا القائد... مساعد الربان».

فقلت: «هذا أكثر مما أطيق. اسمع، إنك مصرى مثلى فأصدقنى: إذا أغمضت عينى وسرت فى هذه الباخرة ووضعت يدى على أول رجـل أصطدم به فهل يمكن أن يتضح أنه ليس بقائد»؟

فضحك الخادم وهو من السويس وقال: «لا أدرى، ولكنى أرجح أن تصطدم بالقائد الملاحظ فإنه وراءك الآن وعلى مسافة مترين فقط».

فانحدرت إلى غرفتى وأنا أقول لنفسى: «إن السفينة التى لها رئيـسان تغرق فكيف بواحدة عددت من (قادها) أربعة إلى الآن! اللهم لطفك»! وفترت رغبتى فى الطعام، وكان نبيه بك العظمة يحرضنى عليه ويلح علىّ أن أصيب منه قليلا، فاعتذرت بالألم الذى سـببته لى حقنتـا الكـوليرا والتيفوئيد، وكتمت عنه وعن زملائى أن للسفينة مائة رئـيس حـتى لا أزعجهم.

ومضى اليوم الأول وأصبحنا دون أن تتـصادم «إرادات» هـؤلاء القباطنة أو القادة، فذهب عنى بعض الـروع وعـاودنى شـىء مـن الاطمئنان. واتفق أن سألنى بعض رفاقى:

«بسرعة كم ميل تسير هذهِ السفينة»؟

فقلت: «لا أدرى، ولكنى أقدر أن سرعتها لاتتجاوز اثنى عشر ميلا بحريا فى الساعة».

فصاح بى واحد:

«مهلا! ان سرعتها خمسة أميال فقط»!

قلت: «خمسة أميال! يا للعار! لو سرنا على أقدامنا لسبقناها»!

فعاد يؤكد الأمر ويقول إنه استقى هذه الحقيقة من القائد فأيقنت أنه لولا كثرة القادة لكانت الباخرة أسرع. وقلت لنفسى إذا كان البطء كل ما تؤدى إليه كثرتهم فلا بأس.

واستيقظت بعد ظهر يوم على صياح عجيب، لا هو صياح ولا هو استغاثة، لأنّ فيه انتظاما ولأن فى الصوت تنغيما، فاستويت قاعدا وأرهفت أذنى فخيل إلى أن الألفاظ عربية ولكن اللهجة غريبة، ثم تبينت لفظين هما: «الله أكبر»! ولكن اللسان الذى يعلو بهما كان أعوج ملتويا، فعجبت ثم تذكرت أنها إحدى سفن «البوستة الخديوية» وهى شركة إنجليزية تسير بواخرها بين السويس والسودان جيئة وذهوبا، وتنقل الحجاج ـ فيما تنقل ـ إلى ينبع وجدة ـ وقد رأينا بعضهم فى الباخرة على غطاء مخزن البضاعة حيث يفرشون السجاجيد ويكدسون أمتعتهم ويحشرون أنفسهم بينهما تحت سماء الله ـ وهذا هو مكان الدرجة الثالثة.

وقد قلت لنفسى لما سمعت هذا الصوت: إن الانجليز قوم يتوخون أن يتكيفوا على مقتضى الظروف ووفق ما تتطلبه الأحوال وهذا الذى سمعته أذان أى دعوة إلى الصلاة، وليس مما يتنافى مع الشذوذ الإنجليزى هؤلاء «القادة» الذين لا أدرى ماذا يصنعون جميعا فى سفينة صغيرة كهذه؟

وسرنى وأضحكنى أن المؤذن «قائد» إنجليزى، وقلت: أشرك إخوانى فيما يفيده العلم بذلك من المتعة، فعدوت إلى سطح الباخرة حيث كنا نجتمع فالتقيت بواحد أقبلت عليه أفضى إليه بخبر هذه البدعة السكسونية. فضحك، ولكن منى، ثم أشفق أن يعرف زملائى زلتى فيركبنى الثقلاء منهم بالسخرية، وأومأ فإذا تحت أنفى جماعة من العرب يصلّون: وإذا صوت الإمام كصوت المؤذن فيه ذلك الالتواء الذى خدعنى.

وكانت سلوتنا الحديث والنظر إلى الجسر، و«الطاولة» وكان بطلها ـ أعنى الطاولة ـ أحمد زكى باشا، غلبنا جميعا وأقر لكل منا بأنه خير لاعب، وفى زكى باشا نشاط وجلد وقدرة على الاحتمال وحلم وظرف وعطف ودعابة، راعتنى منه، وكان لنا كالوالد يحنو علينا ويسأل عنا ويتعهدنا ولا يؤثر نفسه دوننا بملهاة، ولا يستبد برأى أو يصر على اقتراح جَدا كان أو هزلا، بل الرأى عنده ما رأت الجماعه، يتقبله مرتاحا وينزل على حكمه راضيا ولو كان هو مقتنعا بصواب ما يذهب إليه، وكان أعذب الجميع حديثا وأمتعهم مجلسا نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى، فتعلقت بهما وأثقلت عليهما بمحضرى، ولم أدع لهما راحة، ولم يبخلا على بشىء مما استخبرتهما عنه فكانا يهضبان لى بما رأيا وجربا وكابدا فى رقع شتى من الأرض فى الحرب والسلم، ولم يكن لهما منى مناص أو مهرب سوى البحر، وهما لا يزالان أوسع آمالا فى الحياة وأطلب لرغائبهما منها وأقوى رجاء فى الله وفى بلوغ الغاية القومية من مساعيهما من أن يفكرا فى الانتحار فرارا منى، لذلك توثقت بيننا العرى كارهين أو راضين، فلما بلغنا «ينبع» صرنا وكأن صداقتنا أقدم عهدا من الجبال.

ولست أنسى منظر الزملاء وقد أعترهم نوبة «الكتابة» ــ وتصور سبعة أو ثمانية قد جلسوا على الكراسى المسمرة أقبلوا على الورق والبطاقات يسودونها لما علموا أنهم مصبحون فى «ينبع» وأنهم قد يستطيعون أن يبعثوا برسائلهم من هناك[1] ــ إلى أهلهم وإخوانهم وصحفهم، ويكفى أن يجلس واحد للكتابة ليحتذى الباقون مثاله. ويعديهم بالرغبة فى ذلك، فليست الثؤباء وحدها هى التى تعدى، ولا القرود دون خلق الله هى التى تنزع إلى التقليد ولو أن القارئ رآنا فى تلك الساعة ونحن مكبون على الورق ذاهلون عن كل مافى الدنيا لكان أول ما يخطر له أننا قد آلينا أن نصدر فى الباخرة الصحف التى تمثلها، أو أن هناك امتحانا معقودا لنا.

وعرض علينا أحد رجال السفينة بطاقات عليها رسمها فتخطفناها حتى نفذت! كما نفد ورق الخطابات. وتصور سبعة أو ثمانية يستنفدون كل ما فى الباخرة من ورق وخطابات، أليس هذا دليلا على الهمة والنشاط والخصب؟ وأحسبنى مسؤلا عن العدد الأكبر من هذه الأوراق التى استهلكت، فقد نازعتنى نفسى أن أكون متفرجا لا كاتبا، وأن أمتع عينى بمناظر الوجوه المكبة على الورق وما يظهر عليها من دلائل الاجهاد ــ اجهاد القرائح الخصيبة ــ فلجأت إلى الحيلة وقلت أكتب رسائلى بالجملة، فجئت بورق الكربون ووضعته بين الخطابات، وكتبت رسالة واحدة وجيزة ثم جلست أتفرج!

(١) اتضح فيما بعد أن إبقاء الرسائل فى جيوبنا أسرع من إرسالها من ينبع أو جده.

وكان أحدنا يكتب يوميات عن هذه الرحلة وكان يختصنى بهذا السر، ولا أدرى متى كان يكتب يومياته، فما رأيته قط خلا بنفسه أو بكر إلى مخدعه، وقالى لى مرة:

«لقد صارت مذكراتى ضخمة. كتبت اليوم ست صفحات وكتبت البارحة سبعا، وأول من أمس تسعا، فما قولك»؟

فقلت مستغربا: «كل هذا؟ وأى شيء وجدته يستحق التسجيل»؟

قال: «كل شيء. خطوط الطول والعرض، ووجوه القمر، وأدوار الطاولة التى لعبتها وفى أيها كنت الغالب أو المغلوب، والأسماك التى رأيناها فى البحر، بعضها يطير على سطح الماء؛ وبعضها يهاجم السفينة طلبا للقوت، والبواخر التى مرت بنا فى الليل وحييناها والأمم التى هى تابعة لها — وعلى ذكر ذلك أسألك: هل تعرف لماذا لا نرى باخرة فى النهار؟ ألا تعرف؟ — وكم كذبة كذبها... فلان... اليوم، وحالة البحر والرياح، وإن كانت لا تتغير ولانكاد تختلف يوما عن يوم، وهذا ممل، أليس كذلك؟ وكم صورة أخذها رياض؟ وكم صورة أخذتها المدموازيل عايدة؛ كل شيء؛ كل شيء، حتى لقد أفردت «الأكلة الصيادية» عدة صفحات، إنها تستحق ذلك فقد كانت أكلة غير منتظرة وكانت لذيذة. والفول المدمس! أوه! له وحده صفحتان. ألا تراه جديرا بذلك؟ مدهش. مدهش أن نأكل فولا مدمسا على الباخرة تالودى الانجليزية»!

فسألته بعد أن انقطع نفسه: «وماذا تنوى أن تصنع بهذه المذكرات بعد أوبتك»؟

قال: «سأطبعها وأنشرها: كم تظن أنها تساوى؟ أعنى كم تتوقع أن أربح منها»؟

قلت: «تساوى: تساوى إذا اعتبرنا عدد الصفحات ووزنها قياسا على ما كتبت إلى الآن مائة جنيه أو مائتين».

فصافحنى مسرورا وهو يقول: «لقد قدرت لربحى مثل هذا.. تماما».

فقلت مستدركاً «إنما أعنى ثمن الورق الذى تملؤه... أما الربح فلا أدرى. ربما كان أكثر وقد يكون أقل».

فلم يضعف أمله وقال: «تمام، تمام، تقديرك على كل حال مضبوط» ومضى عنى.

ولما كنا عائدين من مكة سألته: «إلى أين وصلت فى مذكراتك»؟

فطال وجهه وقال: «يا أخى الحق أقول لك إن كتابة المذكرات عمل مضن. ثم إنى لا أجد الوقت. نحن فى حركة دائمة فمتى أكتب؟ على أنى سجلت كل شىء فى رأسى. فإن ذاكرتى قوية وأنا أذكر حتى الأحاديث بألفاظها ولو كان عمرها أعواما. فلا خوف. انتظر حتى نرجع ونطمئن».

❊ ❊ ❊

وفى الساعة السادسة من صباح السبت ٤ من يناير أيقظنى أحد الزملاء وأبلغنى أن الشاطئ قد ظهر، فقلت له وأنا أتميز غيظا: إنى لا أحفل بالشواطئ ــ ولو كانت شواطئ الجنة ــ فى الساعة السادسة صباحا، فذهب عنى وأغمضت عينى، ولكن غيره جاء ثم غيره، فأيقنت أن الحماسة التى أوقدها ظهور الشاطئ لن تدع لى جفنا يغفو، فقمت متثائبا متثاقلا ووقفت متكئا على الحاجز فلم أر شيئا فالتفت إلى أول من أيقظنى وقلت بلهجة المعاتب:

«أين هذا الشاطئ الذى بدا لك يا سيدى»؟

فقال: «هذا. ألا تراه؟ غريب. إنى أستطيع أن أشير إلى المكان الذى سترسو أمامه الباخرة. لابد أن يكون هذا».

ومرت الساعات ونحن نروح ونجيء وهو فى مكانه لا يتحول عنه ولاتتعب رجلاه، وبدت «ينبع» ملفوفة فى الضباب، حتى جبال رضوى التى تظهر من ورائها خلناها ضبابا من اختلاط السحب برؤوسها، فاختلفنا وتراهنا، وشرعت السفينة تدور لتدخل المرفأ فقربنا جدا من الساحل وشاء الحظ الساخر أن يكون المكان الذى أشار إليه صاحبنا وأصر على أن الباخرة سترسو عنده، هو المقبرة.

ورست الباخرة، فى المرفأ لا أمام المقبرة، وأقبل الصبيان يسبحون إليها كالسمك وينادوننا أن نلقى إليهم بالقروش ليلتقطوها، فرحنا نرمى إليهم بالقرش بعد القرش وهم يتزاحمون عليه ويغوصون وراءه ويتلقونه بأكفهم وهو يهبط فى جوف الماء قبل أن يبلغ القاع، فمن فاز به دسه فى شدقه، حتى انتفخت أشداقهم وصارت وجوههم مشوهة بشعة المنظر.

وركبنا زورقا إلى المدينة، وهى صغيرة فقيرة، وبها مساجد كثيرة أشهرها مساجد: ابن عطاء، والخضر، والسنوسى، وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم، وليس فيها زرع ولا ضرع، وبها آله لتصفية ماء البحر للشرب يسمونها «الكندنسة» وهى لفظة محرفة عن الكوندنس، فاستقبلنا قائم المقام الشيخ مصطفى الخطيب وهو من أهلها وكان عاملا عليها فى عهد الحسين لم تنحه الحكومة السعودية ترفعا منها عن حماقات العزل والتأمير، وزرنا دار الحكومة وهى أبسط ما تكون: بضعة مكاتب فى

الدور الأرضى، وفى الدور الذى فوقه غرفتان إحداهما للقائمقام وفيهـا مكتب وسجادة ولشبابيكها ستائر، وفى الأخرى مكتبان صغيران. وبعد أن شربنا القهوة النجدية ثم «الشاهي» كما يسمون «الشاى» استأذنا وانحدرنا إلى المدينة نطوف فيها إلى أن يخرج الأمير والناس من صلاة الظهر، فمررنا بالسوق وهى حارة ضيقة مسقفة على جانبيها الدكاكين فيها صنوف شتى من العطارة والبقول والمنسوجات والخبز والأسماك والجراد، وقد أكل منه زكى باشا، ولم يكن فى الدكاكين أحد لأنه كان وقت الصلاة، وكان الطريق غاصا بالأطفال يمشون وراءنا ويحفّون بنا فى خرق ممزقة ومراقع لا تكاد تستر شيئا. فتساءلت: ماذا يحمى هذه المتاجر أن يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء؟ فقيل لى: إنه لا خوف منهم لأنه ما من أحد يجرؤ أن يسرق شيئا.

وبلغنا آخر السوق حيث المسجد وكان الناس قد فرغوا من الصلاة، فوقف رجل أمام كوم من الكلأ وقطع من الحصير وأعواد من الخشب يبيعها بالمزاد، وكل ما أمامه لا يساوى ريالا.

ولم أر امرأة ولا بنتا، إلا واحدة فى نحو السابعة من عمرها ملفوفة فى ملاءة قذرة وفى إحدى أذنيها قرط من العقيق، وقيل لى إن النساء لايخرجن من البيوت، والأهالى خليط من كل جنس وملة، وسحنهم معرض للأمم الشرقية، فمن زنجى إلى جاوى، ومن حجازى إلى مصرى، ومن هندى إلى فارسي، ومن سورى إلى صومالى، وهكذا.

وزرنا الأمير ــ أى الحاكم ــ عبد العزيز بن معمر، وهو شاب نجدى جميل الطلعة وسيم المحيا مقدود قد السيف، والدار على الطراز الشرقى القديم الذى كان مألوفا فى مصر منذ أكثر من خمسين عاما ولا تزال بعض

آثاره باقية فى الأحياء الوطنية التى لم تمتد إليها يد العمران الحديث مثـل الكحكيين وسوق السلاح، وغرفة الاستقبال فى داره مفروشة ببـساط أحمر والكراسى (الخيزران) صفان على الجانبين، وفى الـصدر مـصطبة مفروشة بالسجاد العجمى وعليها الوسائد لجلوسه وكان الأمير يلـبس جلبابا من السكروتة فوقه معطف من الكشمير عليه عباءة حمراء وعلـى رأسه العقال الأسود والمسدس مشدود إلى وسطه، والـسيف المـذهب المقبض يتدلى من حمائله. ومن عاداتهم أن يجلس حرسه الخاص على جانبى الباب من الداخل فى نفس الغرفة، ويجلس الباقون من الحراس خارجهـا وهم جميعا مسلحون، والسيوف والبنادق والمسدسات وأحزمة الخراطيش معلقة على الجدران فكأن الغرفة مخزن سلاح لا حجرة استقبال.

وفى «ينبع» بلدية، ومكتب تلغراف لاسكلى، ومدرسة أولية ابتدائية يديرها مصرى طبقا لمناهج التعليم المصرية وفيها نحو مائة وتسعين تلميذا متفاوتى الأسنان والأطوال، متباينى الثياب مختلفى الوجوه... ومـصلحة للصحة... الخ.

وقد شعرنا من أول لحظة أننا فى بلاد مستقلة فلا أجنبى هنـاك ولا نفوذ ولا سلطان إلا لأبناء البلد وكل موظف حجازى حتى اللاسـلكى عماله ومديره حجازيون، وقد أبى زكى باشا إلا أن يرى هؤلاء العمـال وهم يبعثون بتحيتنا إلى سمو الأمير فيصل فى مكة كأنما لم يكن يصدق أن لابسى العباءة والعقال يستطيعون أن يحسنوا مـا يحـسنه الأوربى مـن الأعمال الآلية على الأقل.

وودعنا الأمير بعد أن التُقطت صورتنا معه وعدنا إلى الباخرة وهناك جاءنا وفد من ينبع ليرد لنا الزيارة ويشكرنا، وبعث إلينا الأمير بعدد من

الخراف هدية منه عوضا عن الغداء الذى لم نستطع أن نجيب دعوته إليه إذ كنا قد تغدينا فى الباخرة.

فحرنا ماذا تصنع بهذه الخراف؟ وعقدنا مؤتمرا للتشاور. فقال واحد نردها شاكرين، ولكن هذا كان مستحيلا، واقترح ثان أن نردها ولكن لتذبح وتوزع على فقراء المدينة، ولكن هذا كان ردا على كل حال، وفيه فضلا عن ذلك خشونة التعريض بالمدينة وأهلها وحكومتها، وقال ثالث: إن فى الباخرة حجاجا فقراء فلنذبح الخراف لهم ولنوزع لحمها عليهم، ففعلنا.

وهكذا كان كل اقتراح مولدا من الذى سبقه، وأنتج الخطأ فى آخر الأمر الصواب. ولا عجب، فما من خاطر أو إحساس إلا وهو وليد خواطر أخرى وإحساسات شتى، وليس فى الدنيا إلا آدم واحد بلا أب أو أم.

❁ ❁ ❁

وفى «ينبع» وجدت «صندوق الدنيا»، وكنت أحسبنى حططته عن عاتقى فى مصر، وكان ظنى أنه يسعنى بعد أن سافرت أن أمشى خفيفا لايثقل كاهلى هذا الحمل ولا يحنى ظهرى ثقله، فاذا بى قد صرت كالأحدب لايدخل فى مقدوره أن يستوى قائما كغيره من بنى آدم الذين كتبت لهم السلامة من اعوجاج الخلق وحدب الظهر وقال لى واحد: «لقد قرأت صندوقك».

فغاظنى ذلك وإن كان قد سرنى، وقلت: «سأضعك فيه إن شاء الله بعد عودتى» فأقبل على يرجو منى ألا أفعل، فقلت: «على شرط».

قال: «ما هو»؟

قلت: «أن تعفينى أنت وإخوانك من ذكـــره وإلا حـــشرتكم فيـــه جميعا».

قال وهو يضحك: «ولكنه والله ممتع».

قلت: «وسيكون الجزء الثانى أمتع بوجودكم». فـــامتقع وجهـــه، وأحسبه خاف أن أرسم له صورة تمسخه وتجعلـــه أضـــحوكة فطمأنتـــه وأكدت لى أنى أمزح. فسألنى وقد سكنت نفسه:

«ولكن لماذا تكره أن يذكر لك»؟

فقلت له: «إن الذى يضحك منه هو الذى أبكانى وأحسبنى معذورا إذا كنت أزهد فى كل ما يذكرنى بسخر ماجرت به المقادير. فإذا كنـــت تفهم هذا فبها ولله الحمد، وإلا فأمسك ودعنا نستمع إلى الباشـــا وهـــو يتحدث عن العروبة يذكر الجواد الذى أهداه إليه جلالة الملـــك عبـــد العزيز فلم يدر كيف يركبه أو يطعمه أو يلجمه أو يسرجه ـــ ســـله: ألم يخطر له أن يطعمه كنافة فى رمضان؟ سله: أكان يأكل ـــ أعنى الجواد ـــ من المدود أم كان الباشا ـــ يبسط له السماط ويمد له له الخوان»؟

❋ ❋ ❋

وفى «ينبع» عشرة آلاف نسمة وأقل من مائة جنـــدى، والحكومـــة كأبسط ما تكون، ولا حاجز هناك بين الأمير وأحقر الأهالى، وســـلطان الحكومة ليس مستمدا من الخوف الذى تبعثه القوة، بل مـــن الاحتـــرام والحب والتعاون، وآية ذلك أن الناس صريحون مع حكامهم وأن الحكام لايبدو عليهم تكلف، ولا تكون الصراحة مع الخوف والتقية، ولا الخوف مع البشر الذى ينضح به الوجه ولا يخفى فيه صدق السريرة، ولا هـــذه البساطة المبتسمة مع القسوة والاستبداد. ولم أسمع فى المرتين اللتين زرت

فيهما ينبع، أمرا يلقى، أو كلمة ملق ودهان تقال، ولقد كان أمير ينبع يسرّ إلى الرجل من حرسه أن يطلب القهوة أو «الشاهى» أو يدعو فلانا أو علانا أو يفسح الطريق، وكنت أراه وهو يميل عليه كأنه يهمس فى أذنه نكتة أو كلمة سارة. ولم تأخذ عينى منظر قسوة واحدا، وكثيرا ماكانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا أمامنا - فى ينبع وفى جدة وفى الكندرة وفى مكة وفى وادى فاطمة - وكان الذين يتولون ذلك الجند. ولكن بإشارة يد من غير أن يدفعوا فى صدور الناس أو يرفعوا فى وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك، وقد عدت من ينبع إلى الباخرة وأنا أحس أنى بدأت أفهم، وقد زدت فهما لما زرت جدة ومكة، ذلك أن الرعية راضية وأن الحاكم والمحكوم متعاونان.

وقد اقتنعت، وأنا لا أزال فى الباخرة قبل أن أصل إلى جده أو أضع رجلى على رصيف مينائها، بأن المرأة النجدية تعرف السفور ولا تعرف الحجاب، وكان اقتناعى بالمشاهدة والمعاينة وليس بالسماع، ورأيت فى الحزم أن أكتم عن زملائى ورفقائى فى هذه الرحلة هذا السر الذى اهتديت إليه لأنفراد بالعلم به وأستاثر بفضل اكتشافه والوصول إليه، وقلت لنفسى: إن الصحافة سبق، ولن تكون لى مزية على إخوانى إذا عرفوا كل ما أعرف، ومالى أنا بهم؟ أليست لهم عيون مثلى؟

ونزلنا فى «ينبع» وجُبنا طرقاتها ومررنا بحوانيتها ورأينا ناسها، وكنت أسمع زملائى يتحدثون عن المرأة والحجاب المضروب عليها ويرددون ما سمعوا من أنها لا تخرج ولا تظهر ولا يراها غير زوجها وذوى قرابتها الأدنيْن فأبتسم ساخرا وأهز رأسى هازئا متهكما وأرد نفسى بجهد عن أن أصيح فهم:

«ياعميان! إن نصف من ترون فى الطرقات نساء تحسبوهن رجالا»!

وقد رأى زملائى المساكين جدة ومكة ومابينهما وعادوا وهم على ذلك يعتقدون أن النساء النجديات محجبات! مساكين! لكم وددت أن أشق لهم بالمبراة جفونهم المطبقة ليبصروا! وكم نازعتنى النفس أن أخطبهم على ظهر السفينة ونحن راجعون، وأن القى عليهم محاضرة فى النظر وكيف ينتفع صاحبه به ولكن الأثرة غلبتنى، وحب الذات كما أقوى فتركتهم يرجعون كما ذهبوا بعيون مفتوحة كمغضة، وكان احتمالى هذا الكتمان وقدرتى على الإمساك على سرّ ماعلمت، جهدا شاقا لم أكن لأقوى عليه لولا الإرادة المصممة. والآن وقد امتحنت إرادتى وأيقنت أنى نجحت؛ أرانى أستحق أن أرفه عن نفسى بالإفضاء وأن أرخى أعصابى المشدودة بالبوح بما أحسنت كتمانه.

لما صرنا أمام "رابغ" أحرمت الباخرة ـــ أعنى ركابها الذين ينوون أن يقصدوا إلى مكة مباشرة فظهر بيننا فجأة رجل نجدى قيل لى إنه أمير فى قومه وحوله حاشية كبيرة من أتباعه وعبيده، وكلهم محرم، والإحرام لا يمنع أن يلبس المرء سلاحه، فكانوا يحملون فوق ما أحرموا به المسدسات والخناجر وأحزمة الخراطيش واتصلت بيننا وبين هذا الأمير الأسباب، فاختلطنا وصار عبيده وخدمه يسقوننا من قهوتهم النجدية الحادة، وهم يقدمونها فى فنجانة كبيرة مفرطحة يصبون فيها نقطة، أو رشفة، تحتاج لكى تشربها أو تلحسها أو تنقلها الى فمك، أن ترفع وجهك الى السماء وتقلب الفنجانة على فمك لينحدر ما فيها إلى لسانك، حتى إذا فرغت دون أن تقع على الأرض رددت الفنجانة فصب لك فيها رشفة أخرى

إذا راقتك الحركة التى يكلفك إياها شربها وإلا هززت الفنجانة علامة الاكتفاء، وقد سمعت ــ وصدقت ــ أن القهوة النجدية تقوى عظام العنق. وقد سمعت أيضا ــ ولكنى لم أر هذا ــ أنهم يعقدون مباريات لشرب القهوة وهم وقوف.

وكان معنا «رياض أفندى شحاته» المصور المشهور فدعاهم إلى الوقوف معنا ليصورنا ففعلوا وكنت غائبا فنادونى فأسرعت إليهم ووقفت حيث وجدت لى مكانا وإذا برياض أفندى يدعونى أن أتزحزح عن مكانى ويشير إلى جارى فالتفت إلى يمينى فلم يسعنى إلا أن أتراجع بسرعة وإلا أن أقول:

«آسف مدام! أعنى معذرة ياسيدتى! لقد زاحمتك وأنا غافل عن وجودك فلا تؤاخذينى! تفضلى».

وتنحيت بعد هذه الخطبة التى لم ترق من سمعها من إخوانى فصاح بى واحد: «ماذا تقول؟ قف يا أخى هنا. نعم هنا واسكت».

فهززت رأسى آسفا مستغربا قلة ذوق هذا الزميل الذى ينقم منى تأدبى مع سيدة. فسمعت رياض أفندى يصيح بى.

«ما تهزش رأسك ياأستاذ مازنى»!

فحار الأستاذ المازنى بين رياض أفندى وهذا الزميل الموبخ وقال ــ أى الأستاذ المازنى ــ لجاره إلى يساره:

«أنا كنت أعتذر فوبخنى زميلى لا أدرى لماذا؟ هل كان يليق أن أكتم الاعتذار لها بعد أن فطنت إلى غلطتى»؟

ففتح جارى عينيه جدا وقال بلهجة المستغرب:

«ماذا تقول؟ من تعنى»؟

وهنا صاح رياض أفندى:

«يا أستاذ مازنى أعمل معروف قف ساكتا خلينا نخلص».

فقلت: «أما إن هذا لغريب! وهل أنا الذى أعطلك؟ الحق أقول انى صرت لا أفهم» وأيقنت أن رياض أفندى غائر منى.

وقال واحد كان ورائى:

«لا بأس. أجّل الفهم إلى مابعد التصوير».

فنظرت إلى الأمير فرأيته يبتسم. وثنيت عينى إلى جارتى الرشيقة وشعرها الوحف المضفر الذى يفترق فوق جبينها الوضاء ويلمع فى ضوء الشمس كأنه مدهون «بالبرينتين» وإلى حَوَر عينيها الواسعتين اللتين يزينهما الكحل، وإلى ديباجة وجهها الضافية وماء الشباب الذى يترقرق فى وجنتيها، والابتسامة الخفيفة المغرية التى تفتر عنها شفتاها الرقيقتان.

وأحسب عينى لم تتحول عنها، وأظننى ظهرت فى الصورة ناظرا إليها لا إلى رياض أفندى، فما كدت ألتفت اليه كان قد فرغ مما يريد فقلت لا بأس، وأقبلت على صاحبتى أكرر لها الاعتذار وهى لا تزيد عن الابتسام رلا تفتح فمها قط حتى كدت أجن شوقا الى رؤية أسنانها التى لم أشك فى أنها مفاتنها الكبرى.

وأشرت إلى فمى وقلت أستفزها إلى الكلام.

«أليس لك لسان؟ أأنت خرساء! مسكينة! يالسخر الأقدار»!

فهزت رأسها وقالت شيئا لم أفهمه. فأعدت ما قلت ببطء شديد ووضوح تام، فضحكت وهزت رأسها ثانية، وتكلمت، ولكنى لم أفهم، فخطر لى أنها غير عربية، وأنها لعلها فارسية أو أفغانية وحرت بأى لسان أخاطبها؛ ولحق بى فى هذه اللحظة زميل فجذبنى وهو يقول:

«ما هذا يا أخى؟ تعطلنا نصف ساعة حتى تحضر ونحن واقفون تحت الشمس المحرقة، وبعد أن تحضر يحلو لك الكلام والإيماء. هذا شيء بارد والله»!

فقلت: «ليس هذا ذنبي فقد كنت أؤدى واجب الاعتذار...».

فقاطعنى قائلا: «اعتذار ايه يا أخى؟ لا، لا... هذا لا يليق! لقد شوتنا الشمس. ولن ننتظرك مرة أخرى».

فتركته وملت إلى غيره وهمست فى أذنه:

«ألا ترى هذه السيدة؟ ألم يرعك جمالها»؟

فقال: «سيدة؟ أى سيدة»؟

قلت: «أى سيدة؟ هذا يا أعمى»!

وأشرت إليها.

فانفجر يقهقه وأنا أنظر إليه كالأبلة، ولما رأيت أن ليس لهذا الضحك آخر مضيت عنه إلى غرفتى فلحق بى فيها وهو يقول:

«سيدة إيه يا مولانا! هذا رجل»

فانتفضت واقفا وصحت به مغضبا

«رجل؟ تقول إنها رجل؟ أأنا أم أنت الأعمى»؟

فعاد إلى القهقة، وقعدت، ثم قلت له:

لقد كلمتها ووجهت إليها الخطاب بضمير المؤنث فلم تعترض فكيف تزعمها رجلا؟

قال: «المسألة بسيطة. لم يفهم كلامك لأنه بدوى قح، وأراهن أنك لم تفهم منه كلمة».

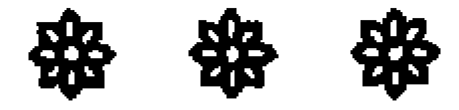
قلت: «صحيح. لقد حسبتها أفغانية»

فابتسم وهو يقول «ليتك ترى هذا الذى حسبته أمراة حين يمتطى صهوة الجواد ويركضه إلى القتال ويرسل شعره المرجل وينفشه! إذن لرأيت أمامك وحشا مرعبا يميت عدوه بنظرة قبل أن يدفن فى صدره حربته».

قلت : «والكحل»؟

قال: «هذا سُنة».

ظاهرة عجيبة جدا هذه: النجدى المشهور بوعورة الخلق فى القتال، يكون فى السلم كما رأيته فى الحجاز: على حظ عظيم من رقة الحاشية، والدماثة، واللين، والطراوة حتى ليستحيل عليك أن تصدق أن هذا الرجل الذى يكاد يسيل من اللين، يحسن أن يركب جوادا أو يضرب بسيف أو يقوى على حمل رمح، وقد رأيناه يفعل ذلك كله فكأنما ركب الجواد ألف عفريت، ولا أكتم أنا خفناه!



# فى جدة

بحر بليد ـــ هذا البحر الأحمر ـــ بليد كالرجل الذى تعابثه اليوم فيضحك غدا. والبليد صحبته متعبة، ورفقته مشقة، فإن حسن الفكاهة ولذتها ـــ كحسن الكراهة ـــ فى تبادلها، لا أن ينفرد بها جانب أو ينوء بثقلها واحد. وقد ظللنا خمسة أيام نسبح ـــ كالسلحفاة ـــ على ظهر البحر، وكانت السفن تمرُق بجانبنا كالسهم ـــ أو كالأرانب مادمنا نذكر السلاحف، ونحن نتباطأ ونتلكأ وأحسبنا كنا أيضا نتراجع ـــ ونداعبه ونمازحه وندغدغه فى كل موضع ونناجيه ونناشده أن يتنبه ونسأله أن يتمطى ويشد أوصاله ويتحرك، ولكن هيهات! لم يشعر بنا البحر أو لم يحفل بنا وأبت له البلادة أن ينتبه لوجودنا إلا بعد أن بارحنا "ينبع"!

بعد ثلاثة أيام شعر بوجودنا فتثاءب! فانكفأ بعضنا فوق بعض، وصارت الرءوس فى مكان الأرجل، وأطلت المعدات من الحلوق وذهبت الكراسي تقعد علينا لا نحن عليها، وانقلب أظهر ما فينا وأبرز أعضائنا، أقدامنا فى الهواء فانتقمت بذلك من جور الرؤوس عليها وطول اغتصابها للمراكز الملحوظة.

ولم أر أنا شيئا من هذا ولكنهم حدثونى بما صنع البحر بهم، فقد كنت نائما وكان لى أيضا غطيط عال يخفت صوت البحر على مازعموا، فجاءنى زميل يقول: «البحر هائج اليوم».

فانتفضت قائما وقد فرحت وسرنى أن البحر أوْلانا التفاتا، وجعلت أروح وأجىء بقدر ما أستطيع فى هذا الحجر الضيق الذى يسمونه حجرة النوم وأرفع صوتى بقول ذلك البدوى الساذج.

والبحر صـعب المـراس جـدا لا جُعلـت حـاجتى إليـه!
ألـيس مـاء، ونحـن طـين؟ فمـا عـسى صـبرنا عليـه؟

ولكن متى يا صاحبى فإنى مازلت فيما أشعر على اليابسة»؟

قال: «ألم تشعر به»؟

قلت: «ربما كنت قد حلمت ـ بل أنا على التحقيق أحلم بـالبحر هائجا طاغيا عنيفا، ولكن البلاء والداء العياء يـا أخـى أنى أنـسى فى الصباح ما رأيت فى أحلامى».

فقال: «أوه. هذا كلام فارغ! لقد كانت الباخرة فى الليـل تلعـب هكذا (وأخرج) قلما من جيبه وأمسك به من وسطه وجعل يرفع طرفيه على التعاقب فكيف لم تشعر بذلك؟ إن هذا غير ممكن»!

قلت: «عفوا. لقد فاتنى نصف عمرى على التحقيـق وأخـشى أن يضيع النصف الباقى ونحن عائدون، ولكنى كنت نائما هكذا متعارضـا على طول السفينة. فبينما كانت أقدامكم أنتم ترتفع فى الهواء ورؤوسكم تهبط إلى حيث تستحق، كنت أنا لا أشعر بأكثر من حركة التـنفس، أو بتقلب بسيط. آه! لقد تذكرت الآن أنى كنت أحلم بأنى أسبح فى المـاء وأخبط فيه بذراعى. صحيح. صحيح»!

فلم يطق صبرا ومضى عنى. فلبست ثيابى بسرعة وعـدوت وراءه وقد تنبهت فى نفسى كل غرائز السوء، فلما صرت على ظهر السفينة ـ أو ما يسمونه ظهرها وإن كان فى حبة قلبها ـ خطر لى أنى لم أر أبـدع من هذا الجو من قبل، وأنه لا عهد لى بمثل هـذا التـألق فى الـشمس والجمال فى البحر. وأى شىء فى الطبيعة أفتن من منظر الجمال الوسنان!

ونازعتنى النفس أن أعرب عن إعجابى بكل هـذا الحسن فى السماء والأرض ـ أعنى البحر ـ فرفعت صوتى أريد أن أغنى، ولكنى لم أدر ما أقول فأقصرت.

وكنت أنظر حولى فأرى رفاقى متشبثين بحديد الحواجز، فدنوت من أحدهم وقلت: «سبحان ربى القادر! كيف بالله رددت طفلا لا تقوى على المشى وحدك»؟

قال: «ألا ترى»؟

قلت: «ماذا»؟

قال: «ماذا؟ ألا ترى مقدمة السفينة كأنها سهم مسدد إلى الشمس فى كبد السماء»!

قلت: «معذرة يا صاحبى. لست أرى إلا ذنبها يحاول أن يغاطس الأسماك ليصطادها لطعامنا، ليس هذا من البحر ولكنه من الربان. من أين يطعمنا إذا لم يفعل ذلك»؟

وهممت بأن أقول كلاما آخر أثبت به نظريتى، ولكن زميلا غيره ألقى بنفسه بين ذراعى، فأكبرت هذه العاطفة منه وتمثلت فى سرى بقول الشاعر:

«أشوقا ولما يمض لى غير ليلة؟ فكيف إذا خب المطى بنا عشرا؟

ثم التفت إليه وأنا أرفعه عن صدرى الذى سكن إليه وقلت:

«أسعد الله صباحك! جو بديع»

فوضع كفه على معدته وهو يقول: «آه يابطنى»! وذهب يتخطر.

واشتاقوا جميعا إلى معانقتى وأنا واقف أمام الباب أتلقاهم بين ذراعى مسرورا وأهش لهم، وأقول للواحد بعد الآخر:

«هدئ روعك! إنى مقدر عواطفك نحوى، ولكن لا داعى إلى العجلة فإن الوقت أمامك طويل يسمح حتى بأن تنظم قصيدة».

فلا يزيد على أن يضع كفه على بطنه ويقول: «آه يا بطنى»!

فخطر لى أن بهم عضة جوع، فلما تلقيت آخرهم ـ وكنت قد فطنت إلى هذه الحقيقة ـ قلت له:

«نهارك سعيد. لقد كنت تريد أن تقول...».

ولكنه قاطعنى وسبقنى وقال وراحته على معدته. «آه يا بطنى»!

فعرفت أنى مصيب فى إحالة مظاهر شوقهم إلى شخصى الضعيف على الجوع. على الرغم من تأكيد أحد الزملاء أن البحر هائج وأن موجه «دفين».

❁ ❁ ❁

ولم نخفّ لرؤية «جدة» لما شارفناها، ذلك أن الساعة كانت الحادية عشرة صباحا، والخادم كان يعد المائدة للغداء قبل موعده، فقلنا هذه بشرى، وجلسنا إليها، وحضر الطعام فلم نبال «جدة» كيف تبدو ولم نكترث لمرفئها أين رست السفينة منه، فقد أقبلنا على الصحاف «نأكل مالا يحسب الحاسب» كأنما خفنا ألا نقع فى جدة على طعام، فرحنا ندخر ما يكفى أياما، وجعلنا نلتهم الشبابيط (السمك) والفراريج (الدجاج) بلا مضغ مخافة أن يدركنا وفد مستقل فيشاركنا، وصح فينا قول ابن الرومى:

فكّاه كالعصرين من دهره كلاهما فى شأنه دائب

ذى معدة ثعلبها لاحس وتارة أرنبها ضاغب

تعلـــوه حمـــى شـــرهٍ نـــافض		لكـــن حمـــى هـــضمه صـــالب

وصدق فينا المثل العامى (وقت البطون تغيب العقول). فلما صـــعد الطبيب إلى الباخرة ودخل علينا أدار عينه فينا فلم ير أحدا رفع رأســـه فقال: «ما شاء الله! ما شاء الله! الحمد لله على السلامة»!

وكانت الأفواه فى شغل بما فيها فرددنا بأيدينا وأستأنفنا العمل فقال: «صحتكم طيبة، والحمد لله».

«مش بطالة: نحمد الله على كل حال».

فقال: «لعل البحر كان هادئا».

فلم يسمع سوى صرير الأضراس، فارتد مسرعا، وأكبر الظن أنـــه أنذر قومه: «أكل يتامى ماهم كاسب».

فقد خف إلى الباخرة وفد كبير من شيوخ جدة وأعيانها ـــ جاءوا، كما أرجح، لينظروا بأعينهم كيف نفترس الطافى ونغوص وراء الراسب، ونعمل أضراسنا فى الجامد، ونعب فى الذائب، ولكنا عجلنا قبـــل مقـــدمهم. وفرغنا من هذا الشأن قبل أن يضعوا رجلا على سلم الباخرة، فلما صـــعدوا إلينا ألفوْنا جلوسا إلى المائدة، ولكن المائدة لم يكن عليها شيء، ولم يكن يبدو علينا أثر من آثار الغارة التى شهدها الطبيب ووصفها لهم علـــى التحقيـــق، فنهضنا لاستقبالهم فى وقار وأبهة ورحبنا بهـــم وانطلقنـــا نتحـــدث معهـــم ونستخبرهم عن جدة والمطر الذى سمعنـــا بـــه، وهـــم يجـــسوننا بعيـــونهم ويستدرجوننا، ولكن هيهات! فانخدعوا وشكّوا فيما رواه الطبيب لهم.

وكانت السماء قد جادهم منها هاضب سحاح. وأمطرهم كما لو لم تمطرهم منذ أربعين عاما على قولهم. فقلت: «أعوذ بالله».

فقال أحدهم: «بل حمدا لله وشكرا».

واستبشروا بنا وتفاءلوا خيرا بقدومنا، وأنساهم السرور بالمطر هول ماسمعوا عن كرّاتنا على الطعام، وأشرقت وجوههم بعد شحوب وتفتحت نفوسهم لنا بعد أن كاد يقبضها الدكتور عنا بما صورنا لهم. وانحدرنا الى الزوارق البخارية بين عبارات الترحيب والتأهيل الصادقة وكان جارى فى الزورق أميرا نجديا محرما وفى يمينه بندقية، فلم أرتح إلى جيرتها وقربها من صدغي، فقلت له فجأة: «هذا فلان يسلم عليك».

فاضطر أن ينقل البندقية إلى يسراه ليصافح صاحبى ولصقت به حتى لا أدع مكانا تعود إليه إذا فكر فى تحويلها إلى حيث كانت.

ولو أن الزورق سار فى خط مستقيم إلى «الرصيف» لبلغناه فى ثلاث دقائق، ولكنه اضطر أن يدور بنا حول الميناء فقطعنا المسافة فى خمس وعشرين دقيقة، لأن مدخل الميناء مكتظ بالصخور والشعاب الحادة التى تقطع الحديد كالسيف. وقد فكرت الحكومة فى إصلاح الميناء فخطر لها على ما علمت أحد أمرين: أن تطهرها وتعمقها، وهذا باهظ التكاليف، أو أن تبرز بالميناء فوق الصخور وهذا أيسر وأقل كلفة. وهناك رأى ثالث سمعت به ولا أدرى إلى أى حد ينظرون إليه على أنه اقتراح جدى، وهو أن تبنى إلى جوار جدة مدينة جديدة على البحر ويكون ساحلها أسهل وأخلى من الوعور، فان إنشاء مدينة جديدة أيسر وأقل نفقة وتعبا من إصلاح مدينة قديمة بهدمها شيئا فشيئا وإقامتها من جديد على مقتضى مطالب العصر فضلا عن إصلاح الميناء وهو وحده مُشْكل. وكان يستقبلنا على الرصيف كائمقام جدة الشيخ عبد الله رضا

الزينلى ولفيف من الأعيان، وسيأتى الكلام عليه فيما بعد فصعد بنا إلى بناء فيه موظفو الميناء وجلس معنا فى الشرفة إلى أن قرب الزورق الثانى فاعتذر وخف إلى استقباله. وتركنا مع الآنسة فيلبى وحقى أفندى سكرتير القنصلية المصرية وفريق من الأعيان ولم يكن لهم جميعا حديث إلا هذا المطر العجيب الذى سبقنا وكانت تحيتهم لنا «جئتم بالغيث». ولهم العذر، فان بلادهم صحراء جرداء ليس فيها نهر أو جدول واحد، واعتمادهم فى معايشهم على المطر والآبار، فأما المطر فلا سلطان لهم عليه. وأمره بيد الله، وأما الآبار فقد كان عددها كبيرا وكانت العناية بها شديدة، ولكن الأتراك لما اضطروا إلى الانسحاب من بلادهم فى إبّان الحرب العظمى، خربوا أكثرها حتى لخفيت معالم عدد ليس بالقليل منها، وعلى أن الآبار مهما كثرت لا تسد حاجات البلاد، لأنها تجف وتنشف، ومن هنا فكرت الحكومة السعودية فى الآبار الارتوازية وفى استخدام الآلات الحديثة لاستنباط الماء من جوف الأرض، واستوردت عددا منها واتخذتها بالفعل فى المدينة ومكة، وهذا خير ما يسعها إلى الآن، مع العناية بالعيون وتعهدها بالإصلاح.

وليس فى جدة فنادق ينزل فيها القاصدون إليها؛ وإنما ينزل الناس فى بيوت الأهالى، فمن شاء أستأجر منزلا بأسره، ومن كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة، على مثال «الفندق» فى مصر مع فروق طبيعية. أما نحن فكنا ضيوفا على الحكومة، وكان العزم أن ينزلونا جميعا فى بيت واحد ولكن الأعيان تزاحموا علينا فقسمونا ثلاث فرق: واحدة فى بيت الشيخ محمد نصيف، وهو من وجوه جدة وكبار تجارها وأصله مصرى وله مكتبة خاصة هى أكبر مثيلاتها فى الحجاز، وفى داره ينزل

على ما سمعنا جلالة الملك عبد العزيز حين يكون فى جدة، والفرقة الثانية فى بيت الشيخ فضل، وهو كاسمه من أهل الفضل والوجاهة، والباقون ستة كان من حسن حظى أنى أحدهم، نزلوا فى دار حسين أفندى العوينى، وهو شاب سورى الأصل نزح إلى جدة لأسباب قومية واشتغل فيها بتجارة واسعة ربيحة، وسيجىء كلام عنه.

ولم نكد نستقر فى بيوتنا حتى قيل لنا: إلى بيت القائمقام؛ فنهضنا وركبنا السيارات الخاصة التى أُفردت لنا، وذهبنا نخوض بها شوارع جدة، وأقول نخوض وأنا أعنى ما أقول، فقد خيل إلى أنى فى البندقية وأننا أحوج إلى القوارب والزوارق ـ أو الجوندولا ـ منا إلى السيارات. وكانت العجلات تغوص فى الماء إلى النصف. وأشد ما عجبت حين نظرت فإذا سائق السيارة صبيا لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره. فخفت أن يقلبنا فى الأوحال أو يدخل بنا الحوانيت أو يحاول أن يصعد الحائط بالسيارة. ولكنه كان حاذقا وكان كأنه يرى الطريق تحت الماء فيجنب الحفر ويتقى أن يرجنا. هذا على أن رأسه لم يكن ظاهرا لنا لصغر جسمه، فلا أدرى كيف كان يبصر الطريق، وكأنى به قد حفظه عن ظهر قلب. فليس يحتاج أن ينظر بعينه. وكان بارعا فى محاورة الماء والروغان من الأوحال والمهابط، فلم يسعنى إلا أن أساله:

«هل تعرف الطريق إلى مكة»؟

فقال: «أى نعم، متى تذهبون إن شاء الله»؟

قلت: «وفصيح أيضاً»! ورقص قلبى إعجابا بمهارته وذلاقة لسانه وحدثتنى النفس أن أخطف ثلاثة أو أربعة من أمثاله أخفيهم فى حقيبتى وأعود بهم إلى مصر، فما رأيت مثل براعتهم وخفتهم ونشاطهم.

واستقبلنا القائمقام على باب داره. وتلكأت أدير عينى فى البيت من الخارج فارتد إلى وتناول ذراعى ومضى يصعد بى السلم، وهو شيخ بلغ التسعين أو أربى عليها، وأنا شاب لم أبلغ الأربعين، ومع ذلك كان يثب على السلالم وأنا أرفع نفسى بجهد واضح؛ وصعود السلم فى البيوت الحجازية عمل شاق، لأن الدرجات عالية جدا، والبعض أعلى من بعض وأضيق، وبعضها طولى أو أقل قليلا ــ إلى أنفى، وقد قلت ــ وأنا ألهث بعد أن بلغنا الدور الثالث حيث حجرة الاستقبال: لقد نجحت فى الصعود، ففى وسعى الآن أن أشترك فى الألعاب الأولمبية. ولم أكن أدرى إلى تلك الساعة أن الهبوط أشق بفضل هذا الارتفاع الذى يؤثرونه للسلالم. وأن النازل إذا لم يحذر خليق أن يهبطها مدحرجا عليها. وقد وجدت بالتجربة أن آمن طريقة للصعود هى الزحف على اليدين والرجلين.

وأستغربت كثرة الأبواب للبيت الواحد، وتعدد السلالم، فقد تكون صاعدا فى وديعة الله وحفظه، وإذا أمامك سلمان يذهب كل منهما فى ناحية فلا تدرى أيهما تختار: هذا أو ذاك؟ وخطر لى فى أول الأمر أن سلما يؤدى إلى حجرات الرجال، وأن الآخر يُفضى إلى مساكن السيدات، ولكن خطر لى أيضا أن الإكثار من السلالم المضلة والأبواب المحيرة، قد يكون أثرا من أيام القلق وعدم الاطمئنان، أيام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سربهم فلا يبعد أن يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ليتسنى لهم أن يجدوا لهم ولذويهم مخرجا أو مهربا إذا اقتحم عليهم الدار عدو، أو لعل الخاطر الأول هو الأصح فما أدرى ولا وجدت من يدرى.

ومهما يكن من ذلك فإن الدار هناك داران على الحقيقة، وهى تبتدئ واحدة ثم تتشعب وتتعدد ولابد لهذا من حكمة خفيت على. أما السلالم فلا حكمة لارتفاع درجاتها إلى هذا الحد المرهق إلا أن تكون حكمة التزهيد فى مكابدتها مرة ثانية. وما أكثر ما كان يخيل إلى، إذ تنزل من أحد البيوت، أننا نهبط من سلم غير الذى صعدنا عليه، حتى خطر لى أن أرسم بالقلم علامات على الجدران للتثبت وقطع الشك باليقين.

وبيت القائمقام أنموذج حسن لغيره من الدور التى رأيناها مع تفاوت بينها فى السعة، وطرازها جميعا شرقى عتيق، وأقرب ما يشبهه فى مصر البنى القديمة فى أحيائنا الوطنية الصميمة من مثل الجمالية والخرنفش. وللبيت بوابة تفتح وتغلق ــ وتغلق أكثر مما تفتح ــ وفيها باب صغير يسمونه فى مصر «الخوخة» ثم الفناء فالسلم الذى وصفناه لك، ثم طبقات يغلب أن تكون اثنتين أو ثلاثا، وحجر الاستقبال فى الطبقة العليا، وغرف المائدة فى التى تحتها، وقد يجتمعان فى طبقة واحدة. فتفرد الأخرى للنوم، والأثاث فاخر والذوق فيه سليم، ليس فيه ذلك البذخ الذى ينم على الخيلاء والذى هو أشبه «بالإعلان» ولا تلك الكزازة التى تقبض النفس وتصعد القلب. وكرم العربى ليس ككرم سواه فهو يكرمك ويبذل لك كل ما يدخل فى طوقه بل فوق ما فى مقدوره، ثم كان الذى يصنع هذا سواه، من فرط السكون والوداعة وقلة التظاهر. وقد كنت كلما دخلت بيتا يختلط على الأمر، فأحسبه بيت رجل آخر غير الذى أعرف أننا مدعوون عنده، ذلك أن مضيفك لا يثقل عليك بالحفاوة ولا ينفرد بتحيتك ولا يبرز نفسه أو يؤكد وجوده، ولا تكاد تستقر فى مجلسك حتى يشيع فى نفسك الشعور بعدم الكلفة وبانتفاء

القيود وبأن حريتك فى حديثك وجلستك وفيما تشتهى نفسك، غير محدودة، وكان القائمقام على سنه وتقدمه وسمته وأبهته يخف إلى «الشيشة» ويجثو حيالها ليصلحها أو يصنع فيها مالا أدرى فلست من هواتها، وكان الواحد منا يهم بأن ينهض ليصده عن ذلك تنزيها له عن هذه الخدمة، ولكن شيئا فى عينيه كان يقعد بنا ويغلّنا عن الحركة. ولم أر فى حياتى ناطقا بطيب الخيم وأريحية النفس وبالعطف الشامل والحب الذى يريد أن يفيض على العالم كوجه هذا الرجل، وقد انصرفنا من بيته بعد أول زيارة وقد عشقناه وشغفنا به ولهجنا بذكره، فلما قال لنا المستر قيلبى. إن القلوب مجمعة على حب هذا الرجل واحترامه لم نستغرب فكأننا كنا نعرف هذا من قبل. وقد كان قائمقام فى عهد الحسين وابنه على المعزولين، فلماء جاء ابن سعود أقره فى منصبه كما أقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذين لا معنى لهما ولا دافع إليهما سوى الهوى، وليس كل ما يروع المرء من القائمقام دماثته وسجاجة خلقه، فإن نشاطه وحيويته شيء عجيب، لا لمن كان فى مثل سنه العالية بل لأى إنسان فى أى سن، ثم هو إلى هذا واسع الدراية محيط بأخبار الأمم وسياساتها، عارف بنياتها ومساعيها لطيف الحديث حلو المحضر، يزيده وقارا قليل من الصمم، وسنه أبدا ضاحكة وعينه براقه، فما أشوقنى لأن أراه وهو ثائر الغضب!

وكان قد أعدّ لنا غداء ولكنا قلبناه عشاء فقيل «حسن. الساعة الأولى إذا».

فملت إلى جارى وقلت.

«سنموت هنا جوعا».

فقال بلهجة الفزع: «كيف؟ لماذا»؟

قلت: «ألم تسمع؟ العشاء الساعة الأولى. نحن الآن فى الساعة الأولى بعد الظهر فسننتظر اثنتى عشرة ساعة أو أكثر حتى نأكل مرة أخــرى. هذا صيام ولسنا فى رمضان وأنا محتج».

قال: «مهلا مهلا، إنها الساعة الأولى بالحساب الــشرقى أى بعــد المغرب بساعة».

فاقترح واحد أن نصلح ساعاتنا وأن نجريها على الحساب الشرقى، فسألته كيف نفعل؟

قال: «تعتبر أن الشمس تغيب الساعة السادسة ــ صيفا أو شــتاء. هكذا يفعلون هنا. المغيب الساعة السادسة (أفرنجية) بلا تغيير على مدار السنة وعلى هذا فأجرْ حسابك».

فحرت لأن الشمس تغرب فى الوقت الذى تــشاء، لا فى الــساعة السادسة كما يريدها أهل الحجاز، وكانت ونحن هنـــاك تستحــسن أن تغيب فيما بين الخامسة والسادسة، وهى فى الصيف تتلكــأ أحيانــا إلى السابعة فلم أدر ماذا أصنع؟ أتكون الشمس غاربة وأقول أنا ــ مجــاراة لساعات الحجاز ــ إنها لا تزال طالعة؟ ثم كيف أوفق بين رقم الــساعة والوقت كما يبدو لعينى؟ الحق أن هذه كانت عقدة.

ولما صرنا فى بيوتنا قلنا: نزور القنصلية، ونؤدى واجبنا ونحيى بلادنا فيها، وكان المطر قد عاد ينهمر. فسألنا حسين أفندى العــوينى «هــل القنصلية بعيدة من هنا»؟

قال: «لا، (ممطوطة) ليست بعيدة ولكن ولكن المطر شديد والطريق أوحال».

وقام إلى التليفون ــ أو الهاتف كما يــسمونه أحيانــا ــ ليــدعو السيارات لنقلنا إلى القنصلية وليس للتليفونات أو للهواتف أرقام تتميــز

بها بل عليك أن تدق الجرس فيجيبك «المركز» ــ وهو يقابل عندنا السنترال ــ فتطلب منه أن يصل ما بينك وبين فلان فى بيته أو دكانه أو مكتبه أو عيادته ــ كما تشاء ويبطئ عليك العامل فتناديه: «يا فلان ماذا جرى؟ أعطنى بيت فلان واصنع معروفا» ذلك أنك تعرف عامل التليفون ــ لا عاملته ــ كما يعرفك. وكان المطر قد أفسد أسلاك التليفون وعطل المخابرات، فوقف حسين أفندى العوينى ساعة يعالج الكلام ــ ساعة كاملة بلا ملل أو ضجر ومن غير أن يفكر لحظة فى الجلوس أو الاستراحة.

وأخيرا بعث بخادمه فجاءت السيارات وركبناها وصاح حسين أفندى بالسائقين: «إلى القنصلية المصرية».

فدارت السيارات وتحولت أمام البيت، ثم جرت أمتارا ووقفت.

وقيل: «انزلوا. تفضلوا»!

قلت: «ماذا؟ هل أصاب السيارات عطب أو تلف»؟

قالوا: «بل وصلنا»!

وصلنا؟ نعم، فما كان بين البيت والقنصلية التى ركبنا إليها بعد لأى، سوى عشرة أمتار!

وقلت لما صارت الساعة السادسة والنصف (أفرنجى) «الآن فانهضوا إلى العشاء فى بيت القائمقام».

فقيل. بل لا يزال الوقت فسيحا ولم تستوف الساعة الأولى دقائقها قلت. ولكنها فعلت وقد غربت الشمس منذ ساعة تماما.

قالوا. كلا لم تغرب إلا منذ نصف ساعة.

فأسلمت أمرى لله ولساعات الحجاز التى لا تعبأ بنهار أو ليل والتى يجرى الزمن على وجهها ما لا يجرى فى بلادنا على وجوه ساعاتنا.

وليس فى نيتى أن أصف كل وليمة حضرتها أو دار دخلتها فإن هذا لا آخر له، فقد كنا نتغذى فى بيت، ونتناول الشاى فى بيت، والعشاء فى ثالث، وربما تغدينا فى جدة وتعشينا فى مكة، أو بالعكس. ولكنى سأذكر القليل الذى يدل على الكثير وينبئ عنه. فقد سمعت أن فريقا من المصريين لا يصدقون أن أهل الحجاز يعرفون الأكل على الطريقة الحديثة فلهؤلاء أقول: إن الحجاز ليس مجهلا من مجاهل آسيا أو أفريقيا، وإنه وطن الإسلام وإليه يحج المسلمون من أقاصى الأرض وأدانيها، وإنه بلاد متحضرة سوى أنها فقيرة، والفقر لا يمنع الأناقة ولا يحول دون التهذيب، ومن الغرور الذى لا يشرّف صاحبه أن يتصور المرء أن الحجاز، لأنه على البحر الأحمر ولأنه ليس مصيفا أو مشتى للمترفين منا وبغاة المراقص وطلاب الملاهى، يجب من أجل ذلك أن يكون مستوحشا وعلى الفطرة الأولى. وليس فى الحجاز فنادق أو مطاعم عامة، ولكنا دُعينا فى كل مكان حتى فى قلب الصحراء وتحت الخيام ــ إلى موائد على الطريقة الغربية عليها من الآكال ما يندر أن تقع عليه العين أو يذوقه اللسان حتى فى مصر المتحضرة.

❁ ❁ ❁

وهم لا يراعون فى الجلوس إلى الموائد ترتيبا معينا، وكانوا معنا على الأقل أحذق وأدق مجاملة من أن يتوخوا ترتيبا، فكان من شاء يجلس حيث يشاء، حتى لا يشعر أن غيره مفضل عليه أو مقرب دونه أو مختص بإيثار. والقوم فى الحجاز لا يأكلون سوى مرتين فى الأربع والعشرين ساعة: مرة حوالى الساعة العاشرة والثانية حوالى الرابعة أو الخامسة.

وأحسب أن جو البلاد هو الذى اقتضى هذا التخفيف، ولكنهم توخـــوا مثل عاداتنا فى مصر من أجلنا. وغيروا مألوفهم وجروا على مألوفنا.

والأطعمة التى تناولناها فيها صنعة حسنة وذوق يجمع بين الأسلوبين العربى والتركى. وقد يحدث أن يقدم لك بعد بضعة ألوان طعـــام حلـــو فتحسب أنك قد قاربت النهاية ويسرك ذلك فرارا من كظ المعدة بألوان عدة لا آخر لها وإذا بهم بعد الحلوى يكرون إلى اللحوم والخُضر وما إلى ذلك على نحو ما كان يجرى هنا فى مصر فى الأعـــراس علـــى الطريقـــة التركية القديمة.

وأحب أن أعين القارئ على تصور حالة جدة وعمل البلدية فيهـــا. فأقول: إن الطرق غير مرصوفة كما هي فى مصر ولكنها نظيفـــة علـــى الجملة، وقد أصارها المطر بركا وبحيرات، وهو مطر ملأ صهاريخ الثغـــر كلها، ومن بين هذه الصهاريخ واحد سعته ـــ بحسابهم ـــ مائتان وأربعون ألف «صفيحة» فاذا اعتبرت أن «القربة» تعادل أربع «صفائح» كانـــت سعة الصهريج ستين ألف قربة، وقد قيل لى إن الماء الذى فى الـــصهاريج ومثلت لسعتها ليتسنى للقارئ أن يكون لنفسه فكرة عن المطر وما صنع، فقد هدم بيوتا وقوض سقف بعض الأسواق، ولم يبق بيت لم يقطر الماء من سقفه والبنى هناك ضعيفة، وقد قضينا الليلة الأولى. فى جدة فأصبحنا وقد انقطع المطر فانطلق عمال البلدية ينـــزحون الماء ويجرفون الأوحال، فلما جاء العصر عادت الطرق نظيفة مأمونة. وأحسبه أنهم ضاعفوا الهمة من أجلنا، ولكنه نشاط على كل حال.

❁ ❁ ❁

والأغنياء هناك لا يدّعون الفقر ولا يكتمون مـالهم وإن كـانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البذخ، والتجارة سـوقها رابحـة مـع الغـرب والشرق. والأحاديث صريحة والألسنة طليقة، وفى هـذا دلالـة علـى الاطمئنان، وقد كان الناس على ما علمت فى العهد السابق يخفون أمـوالهم ويتظاهرون بالمتربة ورقة الحال خوفا من الابتزاز أو الاقتراض الذى هـو فى حكم الاغتصاب والمصادرة، أما الآن فيقول لى بعض الأصدقاء: إن الحكومة فى آخر العام قد تقفر خزائنها فتحتاج إلى المال فتقترض من الأعيان حتى إذا جاء موسم الحج ردت إليهم ما أقرضوه بلا ربا.

وقد سألنا ــ فى طريقنا إلى مكة ــ سائق السيارة وهو شاب حدثنا أنه كان أحد أفراد الفرقة الموسيقية فى جيش الحسين، عن الفـرق بـين العهدين فكان جوابه إن الأمن مستتب على أحسن حال وإنه ما من أحد يجرؤ أن يسرق أو يمد يده إلى شىء فى الطريق.

فقلنا له: وأى العهدين خير؟

فقال: «لكل زمان دولة ورجال».

فصرفنا السرور بتمثله بالشعر والتعليق على ذلك عن سؤاله عمـا يعنى.

❁ ❁ ❁

# بين جدة ومكة

الأرض ـــ فى جدة ـــ دائرة. هذه حقيقة لم يسعنى، بعد يوم واحد، إلا أن أسلم بها وأقطع بصحتها. وقد تكون الأرض هناك كروية أيضا ـــ أو كرية، فما أدرى أيهما الذى لا غبار عليه ـــ بل هى كروية أو كرية فى بعض المواضع ولا سيما فى الشوارع ولها محاور حقيقية لا خيالية وإن كانت لا تدور عليها، ولكنها دائرة على التحقيق؛ إذا كان هناك شك فى كرويتها، على الأقل كلها. وما أسرع ما فطنت إلى هذه الحقيقة الجغرافية الخاصة! فقد كنا مدعوين إلى الشاى فى وزارة الخارجية، فلما دنا الموعد أشرفت من النافذة فلم أر السيارات، فرددت البصر إلى التليفون فإذا هو لا يزال فى مكانه، ولكن صاحب الدار لم يكن حاضرا، والتليفون فى الحجاز يتطلب مهارة كانت تنقصنا، ويحتاج إلى معارف لم يتسع الوقت للإحاطة بها، وكان الخادم قريبا ولكنى استحييت أن أطلب معونته لئلا يتوهمنا بعض الهمج من أفريقيا فسألت الله العون ومضيت الى التليفون ودققت الجرس مرة، فلم يجبنى أحد، فدققته ثانية فلم يعبأ بى مخلوق، فهززت أحد، فدققته ثانية فلم يعبأ بى مخلوق، فهززت «الشنكل» وأنا يائس، أقول لنفسى: إن من لا يحفل الجرس أولى به ألا يكترث «للشنكل» وعاودت الدق والهز مرات، ثم وضعت السماعة وجلست إلى جانبه.

فقال لى أحد الحاضرين: «لم سكت؟ دق له»!

قلت: «أأظل أدق الى المغرب»؟

قال: «لا ياسيدى. دق الجرس وناده»!

فراقنى هذا ونهضت مرة أخرى وعدت إلى الجرس أدقه وأقول:

«يا أخانا! يا حبيبى! يا سيدى ونور عينى! وتاج رأسى»!

فلم يعجبه الفصيح الصحيح من اللغة، فقلت أخاطبه بالعامية لعله لها أفهم.

«يا أخينا! أنت يا شيخ أنت! ياللى جوه! نبحت حسىّ ووجعت قلبى. رد يا أخى، الله يقطعك»!

فلم تنفع هذه الرقية، وهممت بالقعود مرة أخرى فقال صاحبى:

«لا، لا، لا... ناده باسمه يا أخى»!

قلت: «حسن. وهل مفروض فى المصرى الذى يأتى الى جدة أن يعرف اسم عامل التليفون؟ لا بأس»! ووضعت فمى على البوق وجعلت أصيح بما خطر لى من الأسماء لعل واحدا منها يوافق الصحيح.

«يا محمد. يا أبا بكر، يا عمر، ياعثمان، ياعلى، يا معاوية، (لزملائى: يظهر أنه أعجمى) ياناصر خان. يا أزدشير. ياشتربه. انطق قبحك الله! (هل فيكم من يحضره اسم آخر فقد أطار هذا اللعين محفوظى؟ لا بأس) يابطليموس...»

وهنا قاطعنى صاحبى وانتزع السماعة منى ووقف يقول:

«يا مركز... يا مركز...».

فسألته: «هل هذا اسمه»؟

فلم يعبأ بى ومضى يقول:

«أجول لك. يا مركز. أعطنى القناعة.. نعم القناعة. رجاء» فوصله بشركة القناعة للسيارات.

ولكنى لم أركب سيارة، لأن الجهد العقيم الذى بذلته أمام آلة التليفون أحوجنى الى الرياضة فقلت أتمشى إلى الخارجية فهى قريبة منا. فوافقنى اثنان وخرجنا وسرنا على بركة الله نميل مع الطريق حيث يميل، ويصف بعضنا لبعض ماشاهد إلى الآن وماذا كان وقع ذلك فى نفسه، وطال الأمر علينا وخيل إلىّ أننا ندور ونعود إلى حيث كنا، فخطر لى أن أسال لنهتدى، فانتظرت حتى لقينا فتى فقلت له:

«هل لك أن تدلنا على وزارة الخارجية»؟

فحملق فى وجهى وقال: «أيش تقول»؟

قلت: «وزارة الخارجية التى فيها حضرة صاحب المعالى الوزير...»

فجذبنى أحد الزميلين وقال: «يا أخى أنت فين»؟

فغاظنى ذلك واستثار عنادى فقلت:

«اسكت أنت من فضلك. قل لى يا صاحبى. صف لى الطريق».

فقال كلاهما مغمغما قدرت أنه الوصف الذى أطلبه وأشار بيده فقلت لصاحبى: «هيا بنا. لقد عرفت منه الطريق».

فقال أحد الرفيقين: «ولكن ماذا قال لك»؟

قلت: «إن ما قاله لى لايهم. ويكفيك أنى فهمت مراده».

فقال: «ليتنى على يقين من ذلك. فان الواقع أننا نسير فى دائرة. وقد رأيت هذا المسجد أربع مرات على الأقل».

فأكدت له أن هذا كذب لا يليق ولا يشرف بلاده التى يمثلها هنا، وإن كان لم يعدُ الحقيقة فيما قال. وصار لابد من اجتناب الرجوع إلى

هذا الشارع إذا أردت أن لايشمت بى صاحبى. فملت بهما إلى طريق جديد لم نضرب فيه من قبل وإذا بنا بعد ثلاث دقائق نعود إلى المسجد.

فقال صاحبى بلهجة الشامت المنتقم:

«ما قولك الآن؟ أليس هذا هو المسجد بعينه؟ هذه خامس مرة أراه فى ثلث ساعة».

قلت: «محال. إنه ليس أكثر من المساجد فى هذه البلاد وهي جميعا متشابهة».

وأسكته بهذه المغالطة وعمدت إلى أول رجل صادفنا بعد ذلك فسألته عن الطريق الى وزارة الخارجية، فصاح بى صاحبى:

«مادمت تقول «وزارة الخارجية» فلن يفهم كلامك أحد. يا أخى أنت فى الحجاز لا فى مصر».

وهكذا ظللنا نسأل والناس لا يفهمون عنا وأخيرا يشيرون بأيديهم فنمضى ونكر إلى حيث بدأنا. فاقتنعت بحقيقتين: أولاهما أن الأرض هنا دائرة فى كل ناحية. وقد أسلفت القول فى ذلك: والثانية أن على من يسأل الناس عن الطريق أن لايسير إلى حيث يشيرون.

والمدهش أننا مررنا بالخارجية وكنا نسأل الناس عنها ونحن واقفون أمام بابها! وفى آخر مرة كنا على أفريزها، لأن سيارة كانت مقبلة فخفنا أن ترشنا عجلاتها بالوحل فصعدنا فوق الإفريز لنتقى ذلك وإذا بها تقف وينزل منها بعض زملائنا.

وقد رأيت «برج بيزا» المائل، من نافذة وزارة الخارجية أو دارها أو لا أدرى ماذا يسمونها هناك. وكنا نتناول الشاى جماعات على موائد

صغيرة، وكنت قريبا من النافذة فنظرت فإذا مئذنة مائلة جدا، فأطلت النظر إليها وأنا أتوقع أن تنقض، فقال لى جارى: «ماذا يروقك»؟

قلت: «ألا ترى هذه المئذنة المائلة؟ إن أمرها عجيب. ولا أدرى ماذا يمنعها أن تسقط؟ لعلها لا تريد أن تزعجنا».

فنظر جارى وعجب، ومن حقه ذلك، فقد كان انحرافها شديدا، فسألنا واحدا من أهل الحجاز عنها فابتسم وتنحنح وقال كلاما لا يقنع، واعتذر بأن المبانى فى الحجاز ليست متينة أو حسنة جميلة كمبانى مصر، فبينا له أن المتانة والجمال لا شأن لهما ولا قيمة. وأن المسألة أن هذه المئذنة لا يمكن أن تظل ذاهبة فى الهواء لأن مسقطها خارج القاعدة، فإذا كانت مع ذلك ستبقى قائمة فتلك معجزة ولاشك، ومن حق الحجاز حينئذ أن يباهى بها برج بيزا المائل بل أن يُدل بها عليه.

ولما صرنا فى الطريق مرة أخرى رفعت عينى إلى المئذنة فاذا هى مستقيمة لا ميل فيها ولا انحراف. فرجعت أعدو إلى الخارجية فاذا هى تبدو من النافذة مائلة، فانحدرت إلى الشارع وأجلت النظر فى بناء الخارجية فلم أر شيئا يلفت النظر فحرت، وأخيرا بعد أن حاورتنى المئذنة وخايلتنى حتى كاد يطير رأسى حللت اللغز. ذلك أن جدران الغرف غير متساوية الارتفاع فأرضها مائلة، فاذا جلسنا فيها بدت لنا الأشياء منحرفة.

❋ ❋ ❋

وخرجنا يوما نتنزه على امتداد الشاطئ فيما وراء جدة، ولجدة سور قديم لاخير فيه إذا كان المراد به الحماية، وكان هناك ـ فى السور ـ باب كبير للدخول والخروج، ومنه يأخذ المرء أحد الطريقين إلى مكة أو

المدينة، فلما جاءت الحكومة السعودية رأت أن بابا واحدا لايكفي، ففتحت بوابتين كبيرتين: واحدة للدخول والثانية للخروج، وأقامت بينهما مخفرا يسأل الرائح والغادى ويرقب الحركة بينهما؛ والأمر تافه لا يستحق الذكر، ولكنه بعض التنظيم الذى أدخلت الحكومة السعودية وارتاح به الناس، وهم هناك يضيفون هذا إلى أمثاله ويتخذون من ذلك كله شواهد على اتجاه النية نحو الإصلاح، بقدر المستطاع.

ورأينا على مسافة نصف ساعة من جدة بيوتا بعضها من الشعر، والبعض جدرانه ـــ إن صحت التسمية ـــ من جوانب صفائح الغاز، وسقوفها كذلك من الخيش أو هذه الصفائح، وبعض البيوت من اللبن، وخلال هذا البيوت الغنم والجمال، وحولها الكلاب، ولكن المطر هدم البيوت المبنية وأبقى على الشعر والصفائح. وقد وقفنا نتأمل هذه البيوت المتقونة وخيل إلىّ وأنا أحدق فيها أنى صرت للشعر العربى أحسن فهما، بعد أن رأيت بعينى ما الطلول الدوارس، وهو إحساس ظل يلازمنى وأنا فى الحجاز فكلما رأيت منظرا من الجبال أو السهول والأودية أو الكثبان أو المراعى أو الدور أو الخيام، زدت شعورا بصدق تطوير العرب لحياتهم فى أشعارهم، ولم أستغرب شيئا مما كنت أملّه وأستثقله من لجاجتهم فى وصف الطلول والأسفار والرواحل والولع بذلك وإيثاره وتقديمه، وصار لهذا وما إليه معنى جديد عندى ومساغ إلى نفسى، وقد كنت حين أطلع شعر العرب ـــ قدماء أو مولدين ـــ أتخطى هذه الأوصاف إذ كنت لا أجد فيها «متعة ولا أراها تنقل لى صورة لها قيمتها فى نظرى، الحياة تدب فيه وتفيض منه، وإنما أعنى شعر القدماء المقلدين من المولدين أو المحدثين الذين يقولون على السماع والمحاكاة».

وفى السهل الواقع شرق جدة ثكنه للجنود واسعة رحيبة، ومركز اللاسلكى وحظيرة للطيارات. وليس فى هذا كله ما يستوقف المرء، فما منه شيء غريب، ولكن هناك أيضا على مقربة من الثكنة فضاء رحيب مسوّر سُد بابه بالحديد، وكان الناس يفدون إليه زائرين بل حاجين، لأن فيه على المشهور هناك قبر حواء، وقد هدمه السعوديون ولم يبقوا من قبابه شيئا، ومنعوا الناس أن يزوروه. وحدثنى بعض من شهدوه قبل تقويضه أن طول القبر أربعون قدما، وأنه كانت هناك عدة قباب صغيرة على رأسها وصدرها إلى آخر جسمها، وكان الاعتقاد السائد أن أمنا حواء بهذا الطول، ولهذا مدوا قبرها وذهبوا به طولا وعرضا، فإذا صح هذا، فقد كانت أمنا إذا مهولة، ولا عجب أن تلد كل هذه الخلائق وأن تكون أم هذه الأناسى كلها فى الشرق والغرب فليت من يدرى كيف كان آدم؟ لاشك أنه كان أفحل وأهول، ومع طولهما وعرضهما خدعتهما الحية وأخرجتهما من الجنة. فليست العبرة إذن بالطول! وفى هذا عزاء لى عن قصر قامتى!

ولم أر فى الحجاز امرأة ولا بائعا متجولا ولا شيخا همّا يقوم على الراحتين، ولا جنازة ميت، فأما المرأة فلم أستغرب الحجاب المضروب عليها، فنحن فى مصر لا يزال منا من يحجب المرأة ويوصد عليها الأبواب. وأما الباعة المتجولون فلا حاجة بأحد إليهم فى مدينة صغيرة لم تتباعد أطرافها ولم تفش فيها المدنية ولا يزال الزمن يدور فيها متمهلا متباطئا. ولعلى لم أر مقعدا أو سطيحا أو كسيحا لأنى لم أبغهم حيث يكونون، ولكنهم على كل حال لا يرون فى الطرقات وعلى أبواب المساجد وأفاريز الشوارع. ولكنى استغربت أن أقضى ستة أيام فى الحجاز

فلا تقع عينى على جنازة ميت ولاأسمع أن واحدا مل هذه العاجلة وآثـر عليها الآجلة، ولا أدرى ماذا يغرى الناس هناك بالبقاء ويحبب إليهم الدنيا وهى بلاقع، على حين يستطيعون أن ينتقلوا فى طرفة عين إلى الفردوس وقصوره وحوره وولدانه وأنهاره من لبن وعسل وخمرا ولقد اضطررت أن أسال عن ذلك فضحك الرجل وربت لى كتفى وهم أن ينصرف عنى، ولكنى تعلقت به وسألته.

«أصدقنى... هل أنتم تموتون فى سركم»؟

قال: «فى سرنا؟ ماذا تعنى»؟

قلت: «أعنى أنكم تموتون أو لا تموتون».

قال: كيف لا نموت؟ إن الموت حق.

قلت: «لست أراه حقا هنا».

قال: «أستغفر الله العظيم. يارجل».

قلت: «أستغفر الله ألف مرة. ولكن لماذا لا تموتون»؟

فقال مبتسما. «هل تكره لنا الحياة»؟

قلت: «لا أكرهها لكم، ولكنى أكره أن نموت دونكم لماذا يكون الموت حقا علينا وحدنا»؟

وقد أبوا أن يموت منهم ولو واحد فقط، ليقنعنى، حتى ذلك الطبيب الذى كان يقتلنى بمصليه، لم تهن عليه نفسه ولو إكراما لخاطرنا أو فى سبيل التدليل على صحة النظرية ـ فهى فى الحجاز نظرية فقط ـ القائلة إن الموت حق. كان وظيفة الطبيب أن يميت ولا يموت.

❀ ❀ ❀

وسيذكرنى الحجاز دائما بأن عصاى قطعت الطريق بين جدة ومكة ـ قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية، وردت الناس من الجانبين، ووقفتهم صفين من الناحيتين متقابلين على أقدامهم إلا من شاء أن يضرب فى طريق آخر ويسير على نهج جديد.

وشرح ذلك أنا فى اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ الطويل، صاحب شركة القناعة للسيارات، وقد كان على عهد الملك حسين مديرا للجمارك وكان صاحب مال وفير فأتى عليه الاقتراض منه، فلم ينقذه إلا انقراض حكم الحسين وابنه على ومجىء العهد السعودى بالأمن والطمأنينة وحرية التجارة. فاتجر بالسيارات وعاد فوقف على رجليه. وكان المقرر أن نركب إلى مكة بعد الغداء مباشرة، ولكن الأكل طال والألوان تعددت فنسينا مكة وذهلنا عن كل شىء، وأخيرا قمنا عن المائدة آسفين متلفتين متلكئين، وذهبنا الى بيوتنا فخلعنا ثيابنا ونضونا كل ما على أجسامنا ولففناها ـ أعنى أجسامنا ـ فى مشامل ـ كالبشاكير ـ غير مخيطة، حتى أقدامنا خلعنا أحذيتها واعتضنا منها السباعيات؛ وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد تدخل فى بعضها الأصابع. ويلتف البعض حول المفاصل، ورمينا طرابيشنا، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقائب وتوكلنا على الله.

وركبنا سيارة لا أدرى من أى طراز هى، وإنما الذى أدريه أنها كانت فخمة وجديدة، وأنها لم تخرج إلا فى يومنا ذاك، وقلنا للسائق: سر على بركة الله وبقوة البنزين الذى خلقه الله، واعلم أننا سنتعشى عند سمو الأمير فى قصر جلالة الملك بإذن الله، وأن عليك أن تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ثم ارتداء الثياب.

فقال: «الله معنا. إن السيارة جديدة وليس فى وسعى أن أسرع بها لئلا تتلف».

فقلنا: «فلتتلف. فإن موعد الأمير لايمكن إرجاؤه».

ومازلنا به نلح عليه ونحاوره ونداوره حتى أطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو. وجزنا أول محطة فى الطريق ومضينا نبغى الثانية وإذا به يطل ثم يقف ويلتفت إلينا ويقول: «حريق، انزلوا».

ففتحت الباب من ناحيتى وأسرعت فنزلت، ويظهر أن عصاى التى لم أعن بها من فرط الفزع، سقطت إلى الأرض، وصار فى وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة أن ننظر إليها وأن نرى الدخان صاعدا من بين عجلاتها، والسائق يهيل عليها الرمل عوضا عن الماء فانقطع الدخان وشرع يعالجها، وكانت سيارتان قد أدركتانا ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث، وأقترح رياض أفندى المصور أن يرسمنا ونحن محرمون.

ولا أطيل، ركبنا السيارة وأستأنفنا السير ـ على مهل. وأنسيت العصا لأن الخوف من احتراق السيارة صرفنى عنها، وجعلت وكدى طول الطريق أن أخرج وجهى من نافذة السيارة وأنظر إلى العجلة من ناحيتى وأن أشم، لعل دخانا صاعد فأنبه السائق.

والطريق الى مكة طريقان واحد للسيارات وهو حسن ومكبوس بما نسميه «وابور الزلط» وقد رأينا (الوابور) يستريح عند سفح الجبل، والآخر للجمال والمشاة، على يميننا ويسارنا والجمال التى رأيتها صغيرة وهى أشبه بالبعران فى بلادنا، وأحسبها كذلك لضعف المرعى وقلة القوت، وهى تسير قوافل قوافل، وقد عددت خمسين جملا فى قافلة، وكانت تحمل بضائع شتى فى الصناديق والأكياس أو الغرائر، وليس معها سوى طفل واحد هو كل حرس هذه القافلة المغرية.

وليس أحلى ولا أفتن من منظر الأطفال حين يحاولون ركوب الجمل، والطفل لا يبرك الجمل حين يريد أن يصعد إلى ظهره، وإنما يعمد إليه وهو سائر ويتعلق بذيله ويتخذ من هذا الذيل حبلا أو سلما أو مرقاة مستعينا بقدميه يخطو بهما على فخذى البعير كأنهما جداران، ثم إذا هو فوقه. وأمتع من ذلك وأبعث على الدهشة أن ترى بعيرا على سنامه رحل وعلى عسيبه ـ عظم الذنب ـ طفل والعسيب منحدر وعظمته حادة فكيف يقعد عليها الطفل وماذا يمسكه فوقها؟ ساقاه يقبض بهما على الجانبين.

وبلغنا الشميسة قبيل الغروب بدقائق ـ إذا اعتبرنا ساعتى وهى بالحساب الغربى ـ وقبله بأكثر من نصف ساعة إذا اعتبرنا أن الحجازيين يحتمون على الشمس أن تغيب فى الساعة السادسة لا فى منتصفها. وهناك فى الشميسة استقبلنا وفد طويل عريض من مكة جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا، وبينما نحن نتحادث دُعى مدير الشرطة أو لا أدرى من هو إلى التليفون، فاستأذن وذهب ثم عاد يسأل: «هل لأحدكم عصا»؟

قلت: «نعم أنا لى عصا ولكنها والله فى السيارة. تركتها فيها، لأنى لا أدرى هل يجوز أو لا يجوز أن يحمل المحرم عصا».

قال: «ما أوصافها»؟

قلت: «وما شأنك أنت بالله؟ هى عصى والسلام».

قال: «لا، لا، لا. لقد وجدت عصا فى الطريق قرب الرغامة فقطعت على الناس السبيل».

فضحكت وقلت: «أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون ولا تخرج على النظام ولا تعرف قطع الطريق».

فلم يجُد حتى بابتسامة، وضاعت على النكتة فى هذا البلد الجـــاد، وقال: «ابحث عنها من فضلك فإن الطريق مقطوع ولا أحد يـــروح ولا أحد يغدو».

فهرولت فى مشاملى إلى السيارة فلم أجد العصا فعدت وقلت له: «هى عصاى قاطعة الطريق، فاسمح لى أن أعتذر بالنيابـــة عنـــها» فمضى عنى إلى التليفون، وخفت أن يأخذونى بها ويجزونى بما صنعت فإن للقوم هنا شريعة غير القانون المدنى، فعدوت وراءه وأسررت إليه وهـــو يتكلم فى التليفون: «اذكر من فضلك أن الله تعـــالى يقـــول فى كتابـــه المنـــزل ولا تزر وازرة وزر أخرى».

فلم يزد على أن التفت إلى وقال:

«هل نردها إلى جدة أو ندركك بها فى مكة»؟

فقلت: «لست أريدها والله فإنها فاجرة كما ترى وأخشى أن ينـــزو برأسها خاطر آخر، أفلا يمكن دفنها فى الرمال مثلا»؟

فقال للتليفون لالى: «أرسلها مع الشرطة إلى الضيافة».

فصحت به: «لا، لا، ردها إلى جدة مـــن فـــضلك فحـــسبى مـــا صنعت».

فقال لمخاطبه فى التليفون: «بل ردها الى بيت العـــوينى فى جـــدة. رجاء».

ثم التفت إلى وقال: «هيا بنا فقد تأخرتم».

ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى وما صنعت، فقـــد كنـــا فى الطريق إذا بلغنا محطة واحتاج السائق إلى ماء يبرد به جوف هذه السيارة الذى يغلى، نصيح بأحد الواقفين هات ماء.

فلا يتزحزح ولا يدنو منا بل يقول وهو واقف مكانه. «تفضل».

فينـــزل السائق ويجيء منه بما يريد. وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق فقيل لنا: بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شيء من الأدوات أو مما تحمل السيارة فيتهم الرجل بالسرقة. وجزاء السارق هناك قطع اليد، وقد أمّن ابن السعود الناس على أرواحهـــم وأموالهم بشيئين. بقطع يد السارق، وبما يسمونه التصبيحة.

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لا يحتاج بيان، وقد قسا ابـــن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص، حتى لقد حكوا لى أن رجلا جاءه بكيس فيه بن وقال له: «هذا كيس بن وجدته فى الطريق».

فسأله: «ومن أدراك أن فيه بنا؟ حسسته أو فتحته ونظرت فيه، ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن لأخفيته ولم تظهره ولم تسع به إلى. كـــلا! حتى الجس لا يجوز. اقطعوا يده».

ومن أجل ذلك يقع الناس على الشيء فى الطريق فلا يقربونه أبدا. بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا إلى طريق آخر غير الذى فيه هـــذا الشيء المطروح حتى يمر الشرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه، أو يمروا هم بالشرطى فيبلغوه. وإذا لم يقعوا على صاحبه نشروا فى «أم القـــرى» إعلانا تحت عنوان «لقطات».

أما التصبيحة، فشيء آخر. تكون هناك عشيرة ضـــرت بالـــسطو فينذرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة. فان كفت وتركت الناس آمنين واستقامت على الهدى فبها ولله الحمد، وإلا همس فى أذن واحد من قواد جيشه أن يصبحها فيذهب الرجل فى فرقة من الجيش من غير أن يفـــضى

إلى أحد بغايته ومقصده، ويجنب فى طريقه إلى العشيرة مواضع الماء، ويضرب بجيشه فى الصحراء التى لا تطؤها قدم ليظل أمره خافيا وغايته مكتومة، ويقع على العشيرة فى الفجر فيصلى بجيشه ثم يطلق عليها رجاله فيصبّحونها وهم يصيحون: «هبت هبوب الجنة. أين أنت ياباغيها».

«خياله التوحيد إخوان من أطاع الله».

فلا يبقون ولا يذرون.

ولم يصبّح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مذ دخل الحجاز. لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه إلى تصبيحة أخرى.

والطريق إلى مكة واد غير ذى زرع، وعلى جانبيه جبال شتى الشكول متفاوتة العلو، ومناظرها توقع فى الروع أنها غاصة بالمعادن المختلفة، ولست أعلم أن أحدا درس طبيعتها. وفى الطريق محطات أو استراحات، يجد فيها المسافر القهوة والشاى، ويستطيع أن يبيت فيها إذا أدركه الليل أو التعب أو كلّت مطيته، وكبراها بحرة فى منتصف الطريق، ولها سوق دكاكينها من الخيش والخشب، ووراء السوق على الجانبين البيوت الساذجة فيها عيادة أنشأتها الحكومة أو مستشفى صغير لمن يقعد به المرض فى الطريق، من الحجاج أو الأهالى. وفى كل محطة مخفر وتليفون. ولم أستغرب هذا الطريق الموحش ولم أجد فيه جديدا، فإنى فى مصر أعيش فى رقعة من الصحراء وإلى جانبى الجبل.

وقد دخلنا مكة بعد العشاء.

❁ ❁ ❁

# في مكـــة

دخلنا مكة لا أدرى متى؟ ـــ بعد العشاء أو بعد المغرب، فى الظلام والسلام ـــ فما فى الوسع أن يعتمد المرء فى الحجاز على ألـــوان النـــهار والليل لمعرفة الوقت، أو يركن إلى الشمس أو حـــتى إلى القمـــر، وقـــد انتهيت بعد ثلاثة أيام إلى إساءة الظن بالشمس والإيقان باختلال دورتها. وهل كان فى مقدورى أن أكذّب ما أجمعت عليه ساعات الحجاز الجديدة وأن أصدق هذه الشمس القديمة وحدها، ولم تكن ساعتى على يدى فقد تركتها مع ثيابى لما لففت نفسى فى مشامل الإحرام، فلا عجب إذا كـــان الأمر قد اختلط علىّ فلم أعد أميّز بين النهار والليل.

بعد العشاء إذا أو بعد المغرب ـــ كما تشاء فكله ليل ـــ شـــارفنا مكة فنفخ السائق فى بوقه تنبيها وزجرا للناس عن الاحتشاد فى طريقـــه، وفتحت أنا الشباك لأنظر فلم تأخذ عينى شيئا، حـــتى رمـــال الطريـــق وصخور الجبال لفها الظلام فى شملته، فاضطجعت وقلت إن لى شأنا غير شأن أصحابى، هم يدخلون مكة دخول الغريب عنها فمـــن حقهـــم أن يتطلعوا ويشرفوا وينظروا ويتأملوا ـــ إذا وسعهم ذلك ـــ ولكنى أنا ابن هذه البلاد، بل ابن هذه البلاد، بل ابن مكة بالذات، فإن جدتى لأمـــى مكية زوجوها وهى بنت عشرين سنة رجلا فحلا من أهل المدينة فنشزت فطلقوها منه ثم احتملوها إلى مصر بعد وفاة أبيها وخراب بيته وتجارتـــه فتزوجت جدى، ثم إن أبى مازنى مثلى، وقد انحدرت إليه هذه «المازنية» ثم إلىّ بعده على نحو ما انحدرت إلينا «الآدمية»، وهذا كلـــه مفـــسر فى

«صندوق الدنيا» فيرجع إليه من شاء من طلاب هذه الأنساب العريقة. وقد أسلفت القول على قبر حواء جدتى العليا ولست أكتم القـارئ أنى تأثرت جدا وأن الدمع غلبنى حين ألفيت نفسى ـ أنا الغريب البعيد عن وطنى وأهلى وأصحابى وعن كل من يعنى بى أو يكترث لى، واقفا أمام قبر جدتى! وصحيح إن القرابة بعيدة، ولكنها على كل حال، من رحمى، أو أنا على الأصح من رحمها، ولم يخالجنى ظل من الشك فى أن هذا قبرهـا على التحقيق، فقد حن الدم فى عروقى إليها، وكان حنينه بالغريزة التى لا تخطئ، ولن يكذب الدم فإنه ليس بماء، وشعرت بأن معين حبى البنوى لها قد جاش واضطربت أعماقه وطغى وفاض من مقلتى فاستندت إلى حديد الباب وأسبلت الدمع. نعم بكيت أسفا، لأن جدتى لم يطل بها العمـر حتى ترانى، كلا. ومما ضاعف أسفى أنى أنا أيضا لم يفسح الله فى أجلى حـتى كنت أراها ـ فماتت قبل أن يخطر لأبوى أن يجيئا بى ببضعة آلاف من السنين كان من السهل أن تطوى ولم تكن الدنيا تخسر شيئا لو أنها لم تكـر عليهـا. بضعة آلاف فقط كان يمكن اختصارها أو اختزالها على نحو ما، لتتمكن الجدة والحفيد من التعانق وشفاء غلة الشوق المتبادل! ولكن على المرء أن يحتمـل متاعب الحياة وأن يتجلد على صروف الأيام. ولعل ما صارت إليه جـدتى المسكينة المحرومة هو الخير، ولو أنها عاشت إلى اليوم ولم تمت، لما أتيحت لنـا فرصة للخروج إلى الحياة، وفى هذا بعض العزاء لنا.

ورأيتنى أتلفت ـ بقلبى فقط ـ وأنا داخل مكة كأنما أبحث عن بنى مازن أهلى وعشيرتى، واشتقت أن أعانق القبيلة كلها بكل مافيها حـتى الخيام والجمال والخيل والسيوف والرماح، وأن أضمها إلى صدرى وأن

أريح رأسى على صدرها وأن أذرف دموع الفرح بلقائها بعد طول النوى. وبعد الشقة، وعجبت كيف لم يخرج منها لاستقبالى والترحيب بى، وساورتنى المخاوف عليها، وأشفقت أن يكون ابن السعود قد رماها «بتصبيحة»! فإن قومى ـــ عفا الله عنهم ـــ من ذوى المروءات، ولست أعرفهم أطاقوا قط أن يدعوا مسافرا مثقلا بالأحمال رازحا تحت الأعباء، وابن السعود يكره هذا التخفيف عن الناس، ويؤثر أن يدعهم ينوؤون بما عليهم وما معهم، ولا يجيز هذا الضرب من التعاون. وأقسمت - فى سرى ـــ إذا كان (الإخوان)[1] قد (صبّحوا) قومى، ليكونن لى معهم شأن آخر.

ولما صارت بيننا وبين مكة خطوات قال واحد:

«ألا تفتحون النوافذ»؟

قلت: «ولماذا»؟

قال: «قد يكون هناك جند لتحيتكم فيحسن أن تبرزوا فى التحية».

فقلت وأنا أرتد إلى الوراء وقد أحسست أن وجهى صار كالجمرة وإن كانت المرآة التى أمام السائق لم ترنى شيئا، لأنها بعيدة عنى ومنحرفة. أيضا: «عفوا يا سيدى، لا تخجلوا تواضعنا، أرجو... أخ... اصرفوا الناس عنا...»

وكنت أريد أن أقول كلاما آخر ولكنى نسيته لأن صيحة مزعجة انطلقت وسكت آذاننا على أثرها قعقعة سلاح، ففخفت وسمعت أسنانى تخبط وهى تصطدم. ثم ملكت نفسى وأسعفنى الظلام فابتسمت لما علمت أن هذه تحية يتلقانا بها الجيش على باب مكة.

(١) الإخوان لفظ يطلق على النجديين.

وانطلق البوق يرد الناس عن الطريق، ومضى السائق اللعين يخطف بسيارته كأنه يفر بها من الموت، ولا يمهلنا حتى نتأمل الناس المحتشدين على الجانبين والدكاكين المضاءة، بمصابيح البترول ـ أو الزيت فما أدرى ـ والطريق طويل يشق مكة من بابها إلى آخر الكعبة ومن ورائها إلى السوق، وقد قطعناه بالسيارة فى سبع دقائق، ثم وقفت بنا أمام دار الضبافة على «المسعى بين الصفا والمروة» وأمام باب السلام، فنزلنا وأقبل علينا ناس كثيرون يسلمون علينا، فقلت هذه فرصة، ولعل بعض قومى بينهم أتوا مستخفين فملت عليهم، أو على الأصح، شببت إليهم وتعلقت بأعناقهم «طوقتهم بذراعى وساقى أيضا ـ ذراعاى حول أعناقهم وساقاى حول خصورهم ـ وأهويت عليهم أقبلهم وألثم أفواههم وخدودهم وأنوفهم وآذانهم ورؤوسهم، وكان كل منهم يتلقى مظاهر شوقى بما تستحقه وتستوجبه من السرور والجلد ثم يحطنى على السلم».

وملنا إلى غرفة رحيبة نصفها ميضأة، والنصف الآخر تصعد إليه بدرجتين وهو مفروش ومعد للجلوس وفى وسطه مكتب عليه تليفون، فهممنا بالجلوس فقيل بل توضأوا لتطوفوا وتسعوا وتتحللوا من الإحرام، فإن سمو الأمير ينتظركم. فتلفت حولى ثم إلى الدرجتين ورحت أفكر فى طريقة محترمة لهبوطهما فلم يفتح الله علىّ بحيلة، وكان إخوانى فى خلال ذلك قد سبقونى إلى الوضوء فدنوت من حرف الدرجة ورأيت عبدا طويلا فأشرت إليه فدنا منى. فانحنيت من مرقبى العالى كأنى أريد أن أهمس فى أذنه شيئا ثم غافلته وتعلقت به ودرت وتركت نفسى أنحدر على هذا العمود الآدمى إلى الأرض بسلام.

وقدّم لى أحد العبيد «قبقابا» فنظرت إليه ثم هززت رأسى وسألته: «ما هذا»؟

قال: «قبقاب للوضوء».

قلت: «ولكن كيف ألبسه»؟

قال: «اخلع نعليك وأدخل هذا بين إصبعيك».

و«هذا» عبارة عن اسطوانة دقيقة من الخشب المنجور عمودية على سطح القباب، يدخلها المرء بين إصبعيه ثم يذهب يزحف أو يجر القباب، على الأرض ولا يرفعه عنها لئلا تفلت الأسطوانة من بين الإصبعين، إذ لا سير من الجلد له يمسك ظهر الرِّجل، فقلت: بل الحفى خير من هذا وقعدت أتوضا.

وللحرم عدة أبواب، ينحدر منها المرء إلى صحن رحيب جدا ويدور بالكعبة، كصحن الأزهر إلا أنه أوسع كثيرا، وأرضه رمل حصى، ولكنه حول الكعبة مبلط، وكذلك ما بين الأبواب وهذا المطاف. وقد تسلمنا شيخ المطوفين ومضى بنا إلى مقام إبراهيم ـ جدى أيضا ـ عليه السلام ووقف بنا وصفّنا بين المقام وزمزم وقال صلوا ركعتين ففعلنا ثم نهضنا وبدأ الطواف، وشرع فى العمل، وكنت أتمنى لو تريث قليلا ـ دقائق فقط ـ لأنظر إلى الكعبة فى الليل على ضوء الكهرباء، ولكنه لم يعبأ بذلك وطوى ذراعيه إلى صدره كأنه يتهيأ للجرى، وتلك هى الهرولة، ومضى يدعو ونحن نقول وراءه، وكنت وأنا أهرول موزع النفس، عينى إلى الكعبة وإلى الطائفين مثلنا وهم جماعات جماعات وكل جماعة تهرول وراء مطوفها وأذنى إلى هذا الشيخ المطوف الذى كان يأبى إلا أن ينطق عبارات الدعاء بأقصى ما يستطيع من البطء والوضوح وبأكثر ما يسعه

من اللحن أيضا، كأنما حسبنا بعض الجاويين أو الهنود ولم يدر ــ سامحه الله ــ أنا... ولكن المفاخرة لاتليق. غير أن لحنه كان يمزق أذنى ويفسد على تبتلى فى الطواف، وقد أذكرنى جماعة «التراجمة» فى مصر الذين يحشون رءوس السائحين وزائرى الآثار المصرية بالأغاليط التاريخية والسخافات الفاضحة، وكما عالجت مصر مشكل التراجمة والأدلاء بإنشاء مدرسة لهم كذلك أنشأت لهم الحكومة السعودية معهدا لتخريج المطوفين، وحسنا فعلت، فإن مَنْ رأينا من المطوفين أعاجم.

وودت لو أتيح لى أن أتمهل عند الحجر الأسود فإنه عجيب، ولكن الزحام كان شديدا: ولسنا بأحق من سوانا بذاك، وهو أسود فاحم ووضاء مشرق، وحوله إطار بيضاوى من الفضة والمرء يحتاج حين يقبله أن يدخل وجهه فيه لأنه ــ أى الحجر ــ مجوف. وأحسب أن ألسنة مئات الملايين من الخلق قد لحسته وأكلته، أو، لا أدرى، لعله كان هكذا أبدا، وقد قلت وأنا أفعل ما فعلت الملايين قبلى وما ستفعل الملايين بعدى، كما قال عمر بن الخطاب: «اللهم إنى أعلم أن هذا حجر لا يضر ولا ينفع ولولا أنى رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقبله ما فعلت».

والركن اليمانى حجر آخر فى زاوية كزاوية الحجر الأسود، ولكنه أشبه بحجر الصوان أو الجرانيت سوى أنه إلى الخضرة أميل، ومن عجيب أمره أنه يبدو للطائف على بعد متر أو اثنين كأنه من المعدن أو الفضة. وقد نازعتنى نفسى مرارا أن أترك الصف وأتخلى عن المطوف وأدنو منه لأتامله، فلما أذن لنا المطوف أن نفعل فى الطواف السابع كنت أسبق الإخوان إليه.

والحق أقول إنى أحس أن طوافى هذا لم يحسب لى فى عداد الحسنات التى يسجلها أحد الملكين، فقد أفسده المطوف بلحنه كما أسلفت القول فى ذلك، وكنت أنا فى ناحية أخرى أرد عينى بجهد واضح عن التطلع والنظر فيما حولى، وهكذا خرج كل من إخوانى بقصر أو قصور فى الجنة وخرجت أنا كما دخلت وليس لى سوى مشملين على بدنى احتفظت بهما للذكرى. فلابد إذن من عُمرة أخرى أو حجة أعوض بها ما فاتنى.

وقد اشتهيت وأنا ألمس الحجر الأسود أن اقتطع منه قطعة أحملها معى وأعود بها، فقد خيل إلى أنه عنبر متجمد لا حجر، وجمحت بى هذه الشهوة حتى لأنستنى أن ليس على بدنى سوى مشامل الإحرام فذهبت أتحسس لعل معى مبراة أو شيئا يصلح للقطع، ثم أفقت والتفت وإذا بأحد أصحابى يمد يده بمنديل يمسح به الحجر، فعجبت من أين جاء بالمنديل وكيف حمله وأين خبأه، وقد كانت يداه فارغتين، وتأملته وإذا بالخبيث يلبس تحت المشامل ثيابه الصوفية.

وقد قلت له لما عدنا إلى دار الضيافة:

«هات جنيها ياسيدى. جنيها ذهبا».

فحملق فى وجهى وقال: «لماذا»؟

قلت: «جنيها نشترى به ذا القرنين».

قال: «ذا القرنين؟ لست أفهم».

قلت: «خروفا ذا قرنين طويلين متلويين نطلقه عليك فينطحك بهما ثم نذبحه ونطعم الفقراء لحمه».

قال: «ولكن لماذا»؟

قلت: «جزاء وفاقا بما زورت على الله يا خبيث! أتلبس ثياب الصوف تحت المشامل مغالطا ربك فى قلب الحرم المقدس ثم تتجاهل وتحاول أن تهرب من الفدية؟ هات لنا ذا القرنين عجل»!

ولكنه لم يزد على أن قال: أوه ! وضحك.

وملنا إلى زمزم وهى بئر فى الحرم عليها بناء له باب، فسقونا منها ماء غير سائغ، ودخلنا البناء لنغسل رءوسنا ولا أدرى لماذا، واقترح بعضهم علينا أن نستحم بمائها فلم نر لهذا موجبا، فإن ماءها بارد وجو مكة فى الليل غير دافئ، وعلى فم البئر سور من الحديد عال أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحلو لهم أن يلقوا بأنفسهم فى البئر ليغرقوا ويموتوا شهداء على ظنهم ويذهبوا من قاعها إلى الجنة مباشرة بأخصر طريق.

وخرجنا لنسعى، بين الصفا والمروة، وهو طريق بينهما مهدته الحكومة السعودية وعبدته ورصفته تسهيلا للسعى، وطوله نحو كيلو أو أقل، ولابد من قطعة سبع مرات؛ فلما شرعنا نسعى جاءنا البشير من قبل الأمير أن فى وسعكم أن تسعوا بالسيارة اذا كان التعب قد أدرككم فرفعت يدى بالدعاء لسموه وابتهلت إلى الله أن يطيل عمره وأن يلهمه دائما — على الأقل ونحن فى الحجاز — مثل هذا التيسير على الناس وعدوت إلى السيارة فصاح بى الدليل الذى يسعى بن أو معنا على الأصح: «إلى أين»؟

قلت: «إلى السيارة، يا صابر، تعال بسرعة».

ولكن صابرا سائقنا كان ملكيا أكثر من الملك، فقد أبى لن أن نسعى بالسيارة وقال إن هذا لا يجوز، وإن المسعى غاص بالساعين وبالنساء والرجال والأطفال، فليس ما تبغون من الإنسانية فى شىء.

فخجلنا وتركنا السيارة بعد أن استوينا فيها. وأصارح القارئ بأنى لعنت «صابرا» هذا فى سرى، وإن كنت لم يسعنى إلا احترامه، مصرى الأصل وأن لأسرته نحو مائة عام فى الحجاز، وقد كان على أيام الحسين أحد رجال فرقة الموسيقى الحربية. ولكنه الآن سائق سيارة فى شركة القناعة، وأبرز صفات هذا الشاب الجرأة والاستقلال مع الأدب الوافر، وحديثه ممتع وفى لغته فصاحة وفى صوته عذوبة وفى عينيه حلاوة، ولو كان الغناء مباحا لكان الأرجح أن نسمع منه شدوا مطربا، وقد كان يخاطب كبراء الحجاز فى جدة ومكة وفى الطريق بينهما مخاطبة الند للند ويشعل أمامهم سيجارته ويذهب يدخن ويناقشهم ويحاجهم ويعترض على بعض ما يقولون، ويدلى بالصواب فى رأيه كأنه ند لهم، وكانوا هم يتقبلون منه ذلك ولا يرون فيه شذوذا، ولا يبدو عليهم أثر لدهشة أو الامتعاض، فالأمر إذا مألوف.

ولكنه حنبلى مستبد، أبى لنا أن نسعى بالسيارة، فلما أصر رسل الأمير وألحوا، ترك السيارة وأبى أن يسوقها فتولاها غيره، وأحسب صابرا قد حقدها علينا وأسرها لنا فقد تخلى عنا بعد أن عدنا إلى جدة، وعلى أن هناك حاقدا غيره، هو زكى باشا. سعى على قدميه مع بقية إخواننا وسعينا نحن بالسيارة فجعل بعدها يشنع علينا ويشهر بنا ــ مازحا ــ فى كل خطبة له، بل جعل يتخذ من ذلك دليلا على أن الإسلام لا ينافى التقدم ومظاهر المدنية الحديثة. وما كان هذا الدليل ينقصه ولكنها الرغبة فى التشهير بضعفنا وإعيائنا والمباهاة بقوته وجلده على الرغم من سنه.

وقصصنا شعرات من رءوسنا ولبسنا ثيابنا، أما أنا فأخطأت وقصصت الشعرات بعد ارتداء الثياب ولم أتنبه إلى خطئى ألا بعد أن صرت فى نصف ثيابى، فكتمت الأمر، وفى مرجوى ألا يفطن إليه الملك الموكل بى ولا أدرى أيهما ولكن هذا الاختلاف على الاختصاص شأن يعنى الملكين وحدهما ولا دخل لى فيه ولست مكلفا أن أفضه — غير أن أحد زملائى أبى إلا أن يلاحظ ذلك ويرفع به عقيرته ويصبح مسجلا على هذه المخالفة، فأحسست بالملكين جميعاً يتحركان وينتزعان الريش من جناحيهما لتدوين هذه الملاحظة، فكظمت غيظى وقلت وأنا أتكلف الابتسام: «ياسيدى إن العمرة فسدت كلها من قبل ذلك، وقد اعتزمت أن أعوض ما فاتنى فى وقت آخر».

ثم التفت الى يسارى وقلت بصوت عال لكاتب السيئات:

«وعلى أن الذنب فى خطئى راجع لغيرى: إلى المطوّف أولا ثم إليكم، فقد كان واجبا على العارف يعلم الجاهل».

واسترحت بعد أن أدليت بحجتى وشرحت عذرى وحركت كتفى اليمنى تنبيها لمسجل الحسنات.

❀ ❀ ❀

وقصر الملك فى طرف من المدينة، وهو طويل عريض، مبنى بالآجر، وله جناح جديد هو الذى دخلناه، وفى فنائه حديقة صغيرة وقد استقبلنا الجيش على الباب وحيانا لا أدرى كيف فلست إخصائيا فى حركاته. وصعدنا إلى حجرة عظيمة طولها — على ما أقدر — لا أقل من خمسة

عشر مترا فى نحو عشرة أمتار، مفروشة ببساط من المخمل، وعلى مدارها مقاعد عالية شبيهة «بالكنب» المصرى، ومكسوة «باليوت» والمخمل، وكذلك «براقع» الستائر وفى وسطها صف من العمد يحمل سقفها، والجدران مكلسة، وكان الأمير جالسا فى الصدر فنهض لاستقبالنا، فسلمنا وجلسنا وجاءت القهوة، ومن بعدها الشاهى أو الشاى.

والأمير فى الرابعة والعشرين من عمره، وهو نائب الملك فى الحجاز كما أن أخاه الأكبر الأمير سعود ــ ولى العهد ــ نائب الملك فى نجد، وثيابه ثوب أبيض «كالجلابية» المصرية فوقها سترة «جاكتة» رمادية عليها العباءة السوداء وهى رقيقة النسج شفافة، وعلى رأسه «الحرم» والعقال. وهو قسيم وسيم حلو النظرة عذب الابتسامة وديع، ولكن نظرته حين يصمت تبدو حزينة، وفى تقوس شفتيه وذقنه مرارة لا تخلو من تصميم، أما القوة فآيتها أنفه الأقنى وجبينه العريض. وأغرب ما فى وجهه اجتماع اللين والصلابة والرقة والقوة، واختلاط ذلك كله وتسرب بعضه فى بعض، وهو أنطق وجه رأيته بجميع هذه المعانى، غير أن المرء لا يسعه إلا أن يشعر أن هناك زاوية وراء هذا المحيا الناطق يغيب فيها الأمير خواطره وأراءه الخاصة ويحجبها عن العيون الفاحصة. وقد كنت أتوقع ــ قياسا على ما شهدت فى جدة ــ أن يكون قصر الملك أفخم رياشا وأفخر أثاثا، فاذا به يمتاز بالنظافة التامة والبساطة الكاملة أما الأبهة فقد تركها لمن شاء من شعبه.

وغرفة الطعام كأبسط ما تكون: حجرة مستطيلة تسع نحو مائة. فى وسطها مائدة طويلة ساذجة صفت إليها الكراسى الخيزران، وأدوات

الأكل تامة، والآنية كلها من طراز واحد، والملاعق والسكاكين وما إليها من الفضة، وقد تناولنا الطعام على الطريقة العربية وقضينا فيه أكثر من ساعة نتفكه عليه بالحديث، ولم يكن ثم نظام معين أو ترتيب معه للجلوس بل قعد من شاء حيث شاء، وقد احتفظت بقائمة الألوان، وهى مطبوعة على الآلة الكاتبة وفى نشرها دفع لكثير من الأوهام الصبيانية:

«شوربة بالبزاليه».
دجاج رستو بالبوريه.
باميه.
حلا كريمة بالكاكاو.
بريك.
دجاج بالكرى.
بدنجان أسود بالزيت.
حلا كيك بالمشمس.
أرز بالشعرية.
فاكهة.

وقد علمنا من سموه أن الخضر تزرع فى وادى فاطمة — وسيجئ ذكره — من مثل البامية والملوخية والباذنجان والخرشوف وما إلى ذلك، وفى الوادى فواكه كالموز والليمون الحلو فضلا عن الملح، وقد كان سموه يذكر ذلك بلهجة المباهاة، ولفتنا بصفة خاصة إلى الباذنجان، ولكنى لم أستمرئه لأنه غليظ سميك الجلد غير سائغ الطعم.

ولا أطيل على القارئ.. ذهبنا بعد الطعـــام إلى حجـــرة أخــــرى للجلوس، مؤثثة على طراز حجرة الاستقبال الكبرى، ولكنى أســـتغربت أن أرى فيها دولابا مما يتخذ للثياب، وأديرت علينا القهـــوة وأكـــواب الشاى، واشتهينا أن ندخن، ولكن التأدب منعنا، الناس لا يـــدخنون فى حضرة الأمير أو كبار النجديين لأن الدخان مكروه عندهم، وكان الليل قد انتصف فاستأذنا فى الانصراف، ولو أنا كنا انتظرنا حتى يصرفنا هـــو لبتنا إلى الصباح، فما مما يليق عندهم أن يصرف الرجل ضيفه، ولم نكـــد ننطلق بالسيارة حتى أشعلنا السجاير.

ومن غريب عاداهم أن الضيف لا ينام على فراش اتخذه واحد قبله، فإذا ذهب ضيف فُكت المراتب والوسائد والأغطية وأعيد تنجيدها لمـــن عسى أن ينـــزل من الضيوف، وقد لفتنا إلى هذا أنا رأينا كل ما علـــى الأسرّة جديدا لاشك فى ذلك، فسألنا فعلمنا ماورويت، وقيل لنا سترون المنجد غدا يدخل وأنتم خارجون. وأقسم ما نمت على فراش أوثر مـــن هذا ولا أمتع، ولقد راهنت واحدا على أنه محشو بـــالريش فخـــسرت الرهان وتبين أنه قطن جيد مندوف لا أكثر.

ولما فتحت الحقيبة لأخرج ثياب النوم وجدت أنى نسيتها فى جـــدة، فقلت: لا بأس قليل من التقشف ينفع المترف، وبحسبى بعض ما على من الثياب.

وأخذنى النوم وأنا أفكر فى الأمير وفى انتظاره إيانا فى قصر جلالـــة الملك ثلاث ساعات من غير أن يمل أو يتأفف، بل من غير أن نشعر نحن بالحاجة إلى الاعتذار له.

لا أدرى ماذا أصابنى فى مكة، فقد كنت أحس أن عفريتا من الجن ركبنى، وبلغ من شدة إلحاح هذا الشعور أنى كنت أرانى أقف فى الطريق وأثبت قدمىّ فى الأرض مباعدا بينهما وأرفع إحدى ذراعى الى مـــا وراء كتفى كمن يريد أن يسند شيئا ثم أرفع كتفى وأحطهما كأنى أريد أن أرد ما فوقهما إلى الاتزان والاعتدال كما يفعل من يحمل طفلا أو غير ذلك، فذكرت قصة السندباد البحرى الذى ركبه ما ركبنى، فلم يزل مـــستقرا على كتفيه حتى سقاه السندباء البحرى خمرا أدارت رأســـه وأراحـــت أعصابه وفككت أوصاله فطرحه عنه. ولقد تمنيت لو أتيح لى أن أســـقى عفريتى كأسا من الوسكى أو حتى من الزيت لأتخلص مـــن ثقـــل هـــذا الكابوس؛ ولكنا كنا فى مكة ولا سبيل فيه إلى شراب غير ماء زمزم، وهو ماء قد يغشى النفس ولكنه لا يسكر.

على أنى لم أقطع الأمل. وكيف أقطعه وهذا العفريت على كتفى قد لصق بهما وصار كأنه امتداد لهما؟ وكيف أطرح حمله الثقيل عن عـــاتقى بغير الوسكى أضحك به عليه وأزلزل كتفى تحته؟ ففحصت الوجوه التى حولى وتفرست فيها مليا ثم اخترت وجها كالمنتفخ فيـــه عينـــان بـــاطن أجفانهما المحمر كأنه مقلوب، وقلت له:

«يا صاحبى أنى أشيم الخير من وجنتيـــك، وأنـــس الرشـــد مـــن عينيك...».

فقاطعنى «عفوا سيدى...»

قلت «لا داعى لهذا التواضع فإن الأمر بينّ ولا يشك فى ذلـــك إلا أعمى؛ فهل لك فى معاونتى»؟

ففرك كفيه جذلا وتهدلت شفتاه الغليظتان وانشقتا عن أسنان طويلة سوداء، وقال وهو يحنى رأسه قليلا: «مرنى يا سيدى نحن هنا خدامكم».

فوضعت كفى على كتفه وقلت:

«أستغفر الله. ان الأمر بسيط على ما أظن لايحتاج إلى إلا خادم واحد يعرف كيف يصرف العفاريت عن الناس».

فحملق فى وجهى كأنه لا يفهم فمضيت فى كلامى وقلت:

«ان لنا فى مصر طريقة مجربة نصرف بها العفاريت إذا ركبت الناس، وقد أخذناها عن السندباد البحرى، أظنك تعرفه؟ لابد أنك سمعت به. إنه ذلك التاجر البغدادى الشهير... آه لا تعرفه؟ عجيب هذا! إذا ما طريقتكم أنتم»؟

فتلعثم وقال: «طريقتنا؟ طريقتنا؟ هل يريد السيد المازنى أن يقول انه يعتقد أن العفاريت تركب الناس»؟

قلت بضجر: «طبعا. طبعا إن العفاريت مذكوره فى القرآن أفلا تؤمن بالقرآن؟ على أن المسألة لا تحتمل الخلاف فإن الواقع من الأمر أن على كتفى الآن عفريتا وأنا أريد أن أصرفه فما أستطيع أن أظل أحتمله فى غدوى ورواحى هكذا! ثم إنى أريد أن أدخل الكعبة غدا فكيف أدخلها بعفريت؟ ألم تفهم؟ إن العفريت يود أن يغتنم هذه الفرصة ـ فرصة وجودنا وكوننا ضيوف الأمير والسماح لنا بدخول الكعبة بغير تفتيش: فيدخل معى، أعنى مستخفيا على كتفى. وهذا لا يجوز، ولست أرى أن أساعده على ذلك. أفهمت الآن»؟

فضحك الخنزير ـ أعنى الرجل الذى توسمت منه الخير، وظننى أمزح، وقال: «يا رجل. والله لقد حسبتك جادا»؟

فغاظنى ذلك ولكنى كظمت غيظى وقلت بابتسامة متكلفة:

«لقد أخطأت، اسمع: قد يكون عفريتى مؤمنا أو لا يكون لا أدرى. لذلك أريد أن أصرفه. فهل لك أن تعيننى؟ أجب بلا أو نعم. وعسى أن لا تخيب أملى فيك».

فعاد اللعين يضحك، وأحسبه أحب أن يجارينى فيما ظنه مزاحا منى فقال: «وما هى طريقة السندكار البحرى التى تتبعونها فى مصر»؟

فتشجعت وقلت بلهجة الجد المر:

«نسقيه كأسا أو اثنين فيسكر فنلقيه ونستريح منه ــ طريقة عملية ــ بل هى أضمن طريقة لأن قوة الإسكار فى الخمر حقيقة علمية ولهذا نهى الشرع عنها».

فأرسلها ضحكة مجلجلة تجاوبت بأصدائها الحجرة فأسرعت فوضعت يدى على فمه وبودى لو أكتم أنفاسه فقال بعد أن تخلص منى:

«والله يا أهل مصر إنكم لظرفاء».

فقلت: «العفو. هذا بعض ما عندكم. على أن فى الوقت متسعا لتقارض الثناء فهات لعفريتى كأسا».

فابتسم وقال: «كيف تسقيه وأنت لا تراه»؟

فقلت: «إنى أعرف الطريق إلى فمه فإن بيننا الآن اتصالا لا تدركه أنت. فهاتها أولا والباقى على».

ولكنه لم يفعل لأنه ظن لبلاهته أنى أستدرجه إلى الاعتراف بأن فى مكة خمرا؛ وقد رأيته بعد ذلك فعجبت أين غابت سمات الخير وكيف استسرت مخايل الرشد التى كنت أجتليها فى وجهه؟

وقد سلط زكى باشا نفسه علينا بعد ذلك فى الفجر أو قبيله بدقائق وكنا نياما، كما لا أحتاج أن أقول، وكان عفريتى قد انصرف عنى فى الهزيع الأخير من الليل ــ انصرف على يأس كبير، وكان فى حجرتنا ستة أسرّة على صفين، والباقون منا فى حجرات أخرى. وكان سريرى بجانب النافذة بحيث يسعنى بأيسر مجهود أن أطل من الشباك على الحرم، واتفق أنى كنت أحلم بالعفاريت وأرانى كأنى أسقيها خمراً وأعابثها وهى تترنح فادغدغ لها خصورها تارة، وأشعل السجاير من عيونها طورا، وأجرها من ذيولها وأديرها حولى، وهكذا وإذا بصوت ممدود مزعج يوقظنى من سباتى ويبدد أحلامى اللذيذة ويطير خيالاتى المتعة، ففتحت عينى متضجرا، فإذا شبح ضخم يبدو من وراء الكلة فقلت لنفسى «يا للفضيحة! أيُسطى علينا فى دار الضيافة»؟ وابتسمت مطمئنا فقد تركنا ما معنا من النقود فى جدة، وتناومت لارى آخر هذه الحكاية، فانبعث من الشبح صوت غليظ مديد فرفعت رأسى مقدار قيراط فإذا به زكى باشا يبدو فى عباءته شيئا عظيما جدا، ولم يعجبنى أن يوقظنى فى فحمة الليل فحولت وجهى عنه فمد يده وصاح: «قم!»

فأشرت إليه أن لا، فعاد يصيح: «أقول لك قم»

فصحت بأعلى صوت أستطيعه:

«وأنا أقول لك لا، فاذهب عنى»

فقال: «قم لنصلى الفجر فى الحرم. منظر لذيذ لا يصح أن يفوتك».

فقلت: «إذا كان المنظر هو كل ما نبغى، فاذهبوا أنتم فان منظركم من النافذة سيكون أمتع لى، ويمكنكم أن تضعوا علامة على ظهوركم لأعرفكم بها».

وأحسبه لم يسمع أو لم يحفل ما أقول فقد مد يده من تحت الكلة وراح يشد اللحاف ويعريني وهو يقول: «قم، قم، قم».

فصحت به وأنا أجذب اللحاف لأتغطى: «لا، لا، لا».

فمضى عنى إلى الباقين واحدا واحدا ونسى أنه أيقظهم جميعا حين أيقظنى

وتوضأنا ودخلنا الحرم، وفتحت لنا الكعبة وبابها عال والصعود إليه بسلم حشبى متحرك، يوضع عند الحاجة ويرفع بعد ذلك، وهو من النوع الذى كان يتخذ فى المساجد المصرية ليرقاه الخادم ليبلغ الأسرجة فيضيئها أو ينظفها، وذلك قبل اتخاذ الكهرباء وتناول يدى سادن الكعبة وأنا على آخر درجة فكدت أقع وأتلوى ذلك أنى كنت أصعد على يدى ورجلى كما تفعل القردة، ولما استويت واقفا طوقنى بذراعيه وغمر وجهى بلحيته البيضاء الطويلة وكنت أنا أيضا قد أرخيت لحيتى، وكانت بيضاء كذلك، ولكنها قصيرة فأسفت لأنى لم أرسلها قبل رحلة الحجاز ببضعة شهور، إذا لاستطعت أن أقابل سادن الكعبة مقابلة الند للند! وأن أشكه بلحيتى كما شكنى بلحيته، على أن لحيتى على قصرها أفادتنى فى الحجاز وبدأتنى مقاما ملحوظا ومركزا ممتازا. وأكسبنى وقارا ليس لى؛ وجعلت لى سمتا وأبهة لا عهد لى بهما. وكان الناس يحتفون بى ويُهرعون إلى ويكبروننى من أجلها. وينحنون على يدى فأجذبها وأقول: «استغفر الله. تؤ. تؤ. تؤ. بارك الله فيكم. ويعنون بى يمنعوننى أن أمشى إلى حيث السيارة لأن من كان فى مثل سنى وكانت له مثل لحيتى البيضاء لا يليق أن يجشم مشقة. أو يكلف تعبا. فلو أن الغيد فى الحجاز سافرات لبكيت ولقلت متوجعا كما قال ابن الرومى:

أصلحت شيخا له سمت وأبهة تدعوني الغيد عمّا تارة وأبا

ولكنهن هناك محجبات. فلا أسف ولا بكاء. وإني لخليق بحمد الله وشكره على أن بيض وجهي ولم يسوده كوجوه زملائي... أعني الذين كانت لحاهم سوداء. وقد أسفت وأنا هناك على عمري الذي أضعته في الاشتغال بالأدب. وأنفضه في هذا البيت الذي لا يجدي. فإن لحية واحدة بيضاء ترجع هناك بمائة كتاب من خير ما أنتجت العقول. ولو كنت أعرف هذا من قبل لجعلت وكدى لا الكتابة والتأليف كلا. فإن هذا كله عبث بل معالجة لحيتي لتشيب.

ومشى بي السادن خطوات ثم وقف بي ورفع يديه وراح يدعو وأنا وراءه. وعيني إلى لحيته النشيطة التي كانت تتحرك مع الكلام، وأقسم لقد نفستها عليه حتى لقد خطر لي أن أنزعها عن وجهه وألبسها بدلا منه.

وقال بعد أن فرغ: «صل هنا ركعتين».

قلت: «أين القبلة»؟

قال: «لا قبلة هنا. كل مكان قبلة».

قلت: «فهل أصلي دائرا حول نفسي كالكرة الأرضية؟ إن هذا صعب فأرني كيف أصنع».

فلم يفهم وقال: «نصلي ركعتين في كل اتجاه».

فاتجه لي رأيان أردت أن أستفتي فيهما.

ولكني لم أجد من يفتي، أو على الأصح لم أتوسّم في وجوه من حولي قدرة على الإفتاء، فأطعت وصليت.

والكعبة من الداخل حجرة واسعة خالية يحمل سقفها عمد غليظة من خشب زكي الرائحة، وهي مكسوة. ولكن الجزء الأسفل من جدرانها

معرى، وعليه ألواح إلى عصور مختلفة تذكر أسماء من أصلحوها أو رمموها أو زادوا عليها شيئا أو فعلوا غير ذلك، وبعض الكتابـــة كالطلاســـم لا يقرأ. وقد تعقبنى رجل يشرح ما على الجدران؛ وكان مـــن الجلـــى أن شرحه خطأ وأن الاختراع فيه أكثر من العلم، فسألته وأشرت إلى لـــوح ردىء الخط «ما هذا»؟

فقال: «هذا يا سيدى... هذا... أظنه خط.. أ... أ».

فقلت: أستعجله «خط من»؟

فدنا من اللوح وتأمله من قريب ثم رفع رأسه وقال:

«نعم. المنتصر بالله المستنصر.. إيه؟ نعم هو بعينه لقد عرفته».

فقلت: «آه عرفت خطه»؟

قال: «نعم».

قلت: «إنه ردىء».

قال: «إنه ردىء».

قال: «نعم غير واضح».

قلت: «هل كان صديقك»؟

قال: «صديقى»؟

قلت: «لعله كان قريبك»؟

فحملق فى وجهى ثم قال: «إنه قديم جدا».

فسألته: «الخط أم الرجل».

فقال: « كلاهما » .

فقلت: «شىء جميل! وأين هو الآن»؟

فقال بلهجة المستغرب أو الذى بدأ يشك فى عقل محدثه:

«أين هو الآن؟ لقد مات منذ مئات من السنين».

فسألته: «وهل كتب هذا بعد أن مات»؟

فجذبنى أحد الزملاء، فلم ألتفت إليه، وقلت: «أريد أن أبكى».

وأخرجت المنديل ورفعته إلى عينى فأقبل على الرجل يسألنى بلهفة:

«ما السبب يا سيدى؟ لماذا البكاء»؟

فأجهشت وقلت بصوت متهدج من فرط التأثر: «أسفا على المستنصر»؟

فجعل يطيب خاطرى ويؤكد لى أنه فى وديعة الله وجنته. فقلت والدموع تنهمر من عينى: «ولكنه مسكين، فقد عمره كله».

فأخذ يشكر لى عواطفى الرقيقة وشعورى الطيب فتسابلت عبراتى على خدى وأنا أقول:

«لو كان قد أدركك لما خسر عمره كله هكذا مسكين»!

وانتحب. فشدنى زميلى وقال: «تعال يا شيخ»!.

ولما عدت إلى مصر. أقبلت أمى علىّ تسألنى فقصصت عليها ما رأيت، ووصلت فى وصفى إلى الكعبة فقالت:

«هل دخلتها»؟

فقلت: «نعم، دخلناها بصفة خاصة».

فقالت: «طوبى لك لا تخبر أحدا بما رأيت فيها. احذر».

فسألتها عن السبب فقالت:

«إن من يرى الكعبة من الداخل لا يقص على غيره ما يرى».

قلت: «ولكنها خالية ولا شىء فيها. كانت أشبه بمخزن للأوثان فى الجاهلية فأخلاها منها النبى عليه ـ الصلاة والسلام».

فقالت: «أيوه. خليك على كده. كل من سألك عنها تقول له لم أر شيئا».

فقلت: «ولكنها حقيقية خالية».

قالت: «تمام مضبوط. بارك الله فيك».

فقلت: «إنى لا أكذب ولا أدعى؛ هى حقيقة كما أقول خالية».

فقالت: «أيوه. تمام. أهو كده. الله يزيدك عقلا».

فأمسكت، ولم أر لى حيلة، وهأنذا أقول للقراء إن الكعبة لا شىء فيها فليصدقوا، وليكونوا كأمى. وليدعوا لى أو فليضنوا على بالدعاء — كما يشاءون.

❁ ❁ ❁

وقد كانت مصر ترسل إلى الكعبة فى كل عام كسوة جميلة دقيقة الصنع، فكفت عن ذلك فخسرت مركزها الدينى الممتاز وثناء العالم الإسلامى عليها وحمده لها، وإعجابه بصناعتها، وتبطل من جراء ذلك صناع الكسوة المصريون الذين ورثوا هذا الفن عن آبائهم وانقطعوا له، وأنشأت الحكومة السعودية دارا لصنع الكسوة جلبت لها الأساتذة من الهند ليتولوا ذلك وليعلّموا أبناء الحجاز. وقد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما تخرج من الحرائر الموشاة والمطرزة بالقصب والفضة، ومن السجاجيد وما إليها، وهكذا أفاد الحجاز صناعة جديدة وخسرت مصر صناعتها القديمة البديعة، وأصيب عمالها بالفاقة.

❁ ❁ ❁

ومن الممكن أن أقول ــ ومن الممكن أن يصدق القارئ: إن لحيتى طالت فى خمس دقائق أضعاف ما تطول عادة فى خمسة أيام، وإنى لولا سوء الحظ لخرجت من الحرم صباح ذلك اليوم بلحية جلية طولها على الأقل شبر. وسأروى للقارئ ما حدث وأنا على يقين من أن مروءته ستدفعه إلى مشاطرتى ذلك الغم الذى انتابنى لما أفلتت من يدى تلك الفرصة الفضية.

وشرح ذلك: أننا خرجنا من الكعبة أو نزلنا على الأصح ثم قعدنا بين الصفوف عند باب الصفا ننتظر مقدم الأمير لزيارة الكعبة وسماع الدعاء ــ على بابها ــ لجلالة والده، بطول العمر ودوام النصر والتأييد وبأشياء أخرى كثيرة نسيتها الآن وأذهلنى عنها ما وقع لى، وكان الجيش صفين فى الطريق من دار الحكومة إلى الحرم، وتلاميذ المدارس صفوفا فى فنائه، وقيل جاء الأمير فنهضوا بنا إلى الباب، وأقبل سموه وبين يديه وأمامه وعلى يمينه ويساره حاشيته وعبيده فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم المباخر. فدفعونا إليه وفرقوا بنا الخلق إلى صفه فسرنا فى موكبه ومنا من استطاع أن يكون إلى جانبه، وآخرون ردهم الزحام وراءه حتى بلغنا الكعبة ووقفنا أمام بابها، فأجلت عينى فى هذا الحشد الهائل وأنا أتصبر على ما أحسه من الضغط الذى كاد يقصف لى ضلوعى، فرأيت الشفاه تلعب، فخفت أن يرى أحد شفتى ساكنتين لا تضطربان بشىء، فقلت أحركهما بالفاتحة لعل الله ينقذنى ببركتها من الأزم الذى أنا فيه. وأشهد أنها كانت أشد الفواتح التى قرأتها فى حياتى بركة، ذلك أنى ما كدت أتلو منها آية حتى ارتفع صوت بدعاء، ثم رأيت شابا ــ أو أنا أظنه ذلك ــ

يرمى إلى الداعى بعباءة رقيقة النسيج جميلة، فقلت لنفسى وأنا أحسد الداعى، والله إنى لأحسن أن أدعو بخير من هذا وبأجدى منه على الأمير، ثم إنى أرى دعائى مستجابا أيضا.

ولم أستطع أن أسترسل فى هذه الخواطر، فقد قطعها على أن سادن الكعبة — وكان واقفا فى حاشيته، أو لعلهم أبناؤه وأحفاده فى باب الكعبة، فوقنا — تقدم خطوة وبسط كفيه وانطلق هو أيضا يدعو، فقلت لنفسى سيجىء دورى إذا، فصبرا يا مزنى، وعسى أن يكون مع الشاب الكفاية من العباءات، و قارب الشيخ السادن ختام الدعاء فزل لسانه — والمرء كما تعلم بأصغريه: قلبه ولسانه لا بلحيته وقوامه — فدعا بطول النصر والتأييد.. ولكن.. للحكومة العثمانية!

فصحت «يا خبر أسودًا»؟

ولم أملك نفسى فقرصت ذراع جارى وأنا أظنه زميلا لى، وأدرت إليه وجهى متوقعا أن أقرأ فى وجهه تأييد صيحتى فراعنى:

أولا — أنه لم يكن زميلا لى ولا رجلا أعرفه أو أحب أن عرفه.

ثانيا — أنه كان ينظر الى شزرا ووجهه من التقطيب كالإسفنجة.

ثالثا — أنه كان يعرى ذراعه ويفحصه جيدا، استعدادا للاكمة كما توهمت، فخطوت إلى الأمام وتسللت بين الأرجل حتى حاذيت الأمير، ولا أكتم القارئ أنى خفت، فقد أيقنت أن قرصتى كانت أوجع لهذا الجار من الدعاء للحكومة العثمانية، وأنا — كما لا يعلم القارئ وما يمكن أن يعلم بالتجربة — ما هو فى القرص، ومزيتى أنى أتناول «خيطا» من الجلد بين لحم أصبعى وأفركه بهما لا بأظافرى، كما يفعل الأغرار

والبلهاء، فيكون لذلك كي، وشي ولذع كلذع النار، فهذه فائدة خرج بها القراء من حيث لا يحتسبون.

وأيقنت وأنا واقف أن سادن الكعبة سيطير رأسه عن بدنه بضربة سيف، وما على الأمير إلا أن يغمز بعينه واحدا من عبيده أو يومئ له بأصبع فإذا الرأس يتدحرج على السلم ويهوى عند أقدامنا، ولم تخالجنى ذرة من الشك فى أن هذا آخر عمر الرجل، ونسيت أن الحرم كل من فيه وما فيه آمن، وقلت لنفسى، ما دام أن الرجل مقتول لا محالة، فمن الخسارة ولا شك أن تذهب لحيته مع روحه وهى ستحلق له على كل حال بعد موته. فما يكون المرء فى الجنة إلا أمرد، ورفعت عينى إلى وجه الأمير وقد وطنت نفسى أن أتقدم إليه، بعد أن ألمح إشارة الإعدام، راجيا أن يأذن فى نزع لحيته واتخاذها لنفسى. وحولت عينى إلى الشيخ سادن الكعبة فإذا واحد وراءه يجذبه من كتفه.

فقلت: «آه! لقد حم أجلك يا مسكين! سيقودونك إلى الخارج ليقطعوا لك رأسك».

ولكن السادن خيب أملى؛ ذلك أنه التفت إلى من يجذبه ثم إلينا وقال مصححا:

«بطول النصر والتأييد للحكومة السعودية».

ضاعت الفرصة. خسرت اللحية. وسأخرج إذا كما دخلت وليس على وجهى سوى هذه الشعرات القصيرة، واأسفاه! وسيظل هذا الرجل بشبر من الشعر الشائك على مدار وجهه على حين أمشى أنا بين الناس محروما كاسف البال! وما لحية يضن على بها الأمير؟ إن صاحبها لا يزيد بها كبرا، ولا ينقص بغيرها عمره، وقد لبسها دهرا طويلا فحسبه طول ما

تمتع بها ولن يضيره الآن وهو واقف على ساحل الحياة، أن تخلع علىّ، أنا الذى ليس أحوج منى إلى مثلها.

وهبط قلبى، وتدلّى على صدرى، واسودت الدنيا فى عينى، وهمضم وجهى، ونقص وزنى، وتخاذلت رجلاى، فلو أفسح الناس لى مكانا كافيا لتهافت إلى الأرض وتهاويت كوما مفككا من العظام اليابسة والأعصاب المرهقة، وأدبر لحم خدى، وظل يدبر ويدبر حتى بلغ أصول الشعر ومنابته فبرز معظم الشعر إلى الجذور.

ورفعت يدى إلى وجهى فاذا بى أحس لحيتى قد طالت... من الهزال!

وانطلقت المدافع من قلعة بجاد فطار الحمام عن أكتافنا.

❊ ❊ ❊

وكر الأمير راجعا فكررنا معه نتدافع ونتزاحم ويستوقفنا رياض أفندى أمام الفوتغرافية فتتلمس رؤوسنا فرجة تظهر منها. أمام العدسة، وأشب أنا القصير المسكين ثم أنحط يائسا، حتى بلغنا الباب، وكنا قد دخلنا من غيره؛ فسبقنا الأمير إلى دار الحكومة، ووقفنا نحن ننتظر أن يجيئونا بأحذيتنا، فلما صارت فيها أقدامنا بين صفوف الجند إلى دار الحكومة، وراقنى منظر الجنود فى ثياب «الخاكى» وقلت باقون لتحيتنا ولا شك فقد مر الأمير فجعلت أتلفت يمينا ويسارا وأرفع يدى بالسلام.

فسألنى واحد: «على من تسلم»؟

قلت: «أريد تحية الجند يا أخى».

فصاح بى: «أى جند يا أخى؟ ألا تخشى أن يعدوا هذا تهكما منك؟ أتريد أن توقعنا فى ورطة»؟

فمنحته أعذب ابتساماتى وأرقها وأحفلها بالعطف والمرثية، وواصلت تحياتى وتسليماتى غير عابئ بهذه الغيرة.

وتوقعت أن تنقض الدار. فقد كانت غاصة لا موضع فيها لقدم فلو رميت كرة صغيرة لظلت تتنقل من رأس إلى رأس دون أن تصل إلى الأرض، بل لكان الأرجح أن تصعد مع الناس إلى الطبقة العليا وأن تدخل على الأمير معهم.

وبعد لأى ما بلغنا غرفة الاستقبال. وكان الأمير واقفا فى الصدر وحوله الكبراء والجند والناس يتقدمون إليه ويصافحونه. فإذا كان من بينهم عظيم أو وجيه وضع ـــ أى الوجيه ـــ يده على كتفى الأمير وجذبه وقبل أنفه لأن الأنف أبرز شيء فى الوجه، وقد وقف الأمير كما رأيناه، مقدما أنفه لمن شاء ومتلقيا عليها قبلات المهنئين ولثمات الداعين، فلما جاء دورنا وددت لو أنه كان أمامه كرسى! إذا لفزت أنا أيضا بتقبيل أنفه ولجربت ذلك وعرفت سببه وتقصيت سره ولكنى كما تعرف؛ فاكتفيت بأن تقدمت إليه فى تؤدة ووقار، ويسراى تمسح لحيتى تنبيها إليها ولفتا لشيبها؛ ويمناى تمتد إلى يده وتقبض عليها.

والحق أقول إن سلام النجديين لا يعجبنى لأنه بارد لا حرارة فيه ولا روح، والواحد منهم ـــ أمير أكان أو غير أمير ـــ يمد إليك كفا مفتوحة كأنها قطعة من الجبن الطرى لا عظم فيها ولا أغصان لها، فإذا تناولتها وقبضت عليها لم يبادلك ذلك بل ترك كفه لك تصنع بها ما تشاء، ثم يسحبها فى فتور وضعف، فتخجل وتبرد الحرارة التى تناولت بها يده، ويجمد الدم فى عروقك.

وانصرفنا عن الأمير بعد السلام عليه، إلى غرفة أخرى ذهبوا بنا إليها وهناك سقونا عصير الليمون. ثم ما لبثنا أن دعينا إلى الأمير فدخلنا وجلسنا وهنأناه مرة أخرى وأديرت علينا القهوة النجدية، وأمرها عجيب، ذلك أنها خليط من البن والمرى والحبهان ولا أدرى ماذا أيضا، وطعم البن يختفى بين هذه الأخلاط الحريفة، ويجيئونك بها فى أبريق كبير من النحاس، يحمله الخادم فى يسراه، وفى يمناه الفناجين الكبيرة بعضها فى بعض فيصب من الأبريق مقدار رشفة فى الفنجانة ويقدمها لك فتتقلب الفنجانة على فمك وتهزها لينحدر ما فيها بسرعة، فإذا راقتك القهوة مددت يدك بالفنجانة فى صمت فيصب لك رشفة أخرى وهكذا وإلا هززت الفنجانة فينصرف عنك.

وقد كنت وأنا فى مجلس الأمير متعبا وكان رأسى أحسه ثقيلا، وخفت أن أنام أنا أو أهوّم، فقلت أنبه نفسى بالقهوة؛ فرجوت من الخادم أن يملأ لى الفنجانة فإن هذه الرشفات الضئيلة لا تصنع شيئا ولكنه آثر عادته فذهب يصب لى رشفة بعد أخرى وأنا أناديه بعد كل واحدة وأرده إلى، ولا أناوله الفنجانة مخافة أن يذهب عنى فلا يعود، فلما تكرر ذلك أربع مرات خطف الخادم الفنجانة وصاح وهو يمضى عنى ضاحكا «يا رجل»!

فقمت وراءه وأنا أقول: «ما هذا الكلام الفارغ؟ أريد قهوة حقيقية لا لونا فى الفنجانة! تعال هنا»!

فأسرع إلى واحد من الحاشية يسألنى ما الخبر؟

قلت: «الخبر أني أريد أن أشرب قهوة حقيقية، وهذا الرجل يضحك على ويقدم لى دهانا فى قعر الفنجانة لا يسيل ولا يصل إلى حلقى منه شيء. هذا هو الخبر ـــ ثم هذا لسانى (وأخرجته) بذمتك هل ترى عليه أثرا للقهوة»؟

فقال الرجل: «لا عليك، تعال يا هذا، أترع له الفنجانة».

وقد كان.

وكفوا بعد ذلك عن مخادعتى بلون القهوة وصاروا يجيئوننى بها فى كل مكان قهوة حقيقية لا شك فيها ولا فى مقدارها ولا فى طعمها ولا فى أثرها. ولكنها سرقت النوم من جفونى ففهمت لماذا يكتفون منها برشفة.

وعدنا إلى دار الضيافة لنستريح فاتفق أن لقيت فى الطريق واحدا لم أشك فى أنه نجدى وكان فوق نجديته قصيرا، فأقبلت عليه وقلت هذه فرصة، وقلت: «كيف حالك؟ إن شاء الله خير».

وأهويت على كتفه فجذبتها على نحو ما رأيتهم يفعلون ومططت شفتى استعدادا لتقبيل أنفه، ولكنى لم أحسن قياس الأبعاد وعمل الحساب اللازم، وجاءت الجذبة أسرع وأشد مما ينبغي فوقع فمى على فمه واصطدم الأنفان.

فلما أفاق من دهشته، قلت له على سبيل الاعتذار، وأنا أتلمظ وامصمص بشفتى: «لا مؤاخذة! لقد أردت أن أقبل أنفك، ولكن التدريب ينقصنى. على كل حال الخيره فى الواقع. السلام عليكم».

وذهبت أعدو ولحقت بإخوانى وهم يهمون بالعوده إلى وقد توهموا لبلادهتهم أننا اشتبكنا فى مصارعة.

❁ ❁ ❁

# بين مكة والكندرة

اشتهيت وأنا جالس فى «دار الضيافة»، أن أدخن «نرجيلة» أو «شيشة» كما يسمونها فى مصر، ولست من هواتها. ولكنى افتقدت منظرها فى مكة. وكنا فى جدة، كلما دخلنا فى بيت يجيئوننا بعدد من هذه النراجيل على أشكال شتى وحجوم مختلفة وألوان عدة، فمنها ما هو من الفضة أو المعدن المنقوش أو المطلى بالذهب، ومنها القصير والطويل، والذى فيه صنعة والساذج الغفل، والذى خرطومه من المخمل الأرجوانى أو الأخضر، إلى آخر ذلك مما لا موجب للتقصى فيه. وأهل جدة يستعملون للنرجلية طباقا معالجا بالعنبر ومائة مادة أخرى لم أسمع بأسمائها من قبل؛ تجعل له أرجا قويا وتترك المرء ـــ على ما سمعت ـــ يحلم.

ولم أفهم لماذا تكثر النراجيل فى جدة، ولا أثر لها فى مكة؟ وخطر لى ـــ على سبيل التعليل ـــ أننا هنا ضيوف الحكومة والحكومة لا تدخن ولا تسمح بالتدخين، على الأقل فى حضرتها، وفى دورها. غير أنى لم أسترح إلى هذا التعليل وقلت إن الأعيان الذين يحفون بنا كان يسعهم أن يقترحوا علينا أن يجيئونا بواحدة، فإنا مصريون، وما لا يجوز للمكى جائز للمصرى، ثم إنهم يدخنون السجاير فلم لا يتخذون النراجيل، وكله تدخين؟ وعلى ذكر السجاير أقول: إن القوم فى الحجاز لا يعرفون منها سوى صنف واحد رخيص ردىء هو بعض ما يصنعه ويصدره إليهم «ماتوسيان». وقد يكون فى رخصه شك، ولكنه ردئ على التحقيق،

يتخذه السائق كما يتخذه الوجيه السرىّ، فالديمقراطية كما ترى بخير هناك، وأبرز عناصرها وأقوى مظاهرها هو «ماتوسيان».

وأعود إلى ما استطردت عنه؛ أعنى إلى النرجلية، فأقول: اشتقت أن اضطجع على واحدة من هذه الحشايا الوثيرة وأتكئ بكوعى على حسبانة صغيرة وأن أضع رجلا على رجل وأدنى خرطوم النرجلية من شفتى وأرسل الدخان الكثيف إلى رئتى ومعدتى بل إلى أخمص قدمى، ثم أرده من فمى وأنفى وعينى وأذنى وانفجر بالسعال القوى كأن بركانا انطلق من جوفى؛ وأظل بعد ذلك بضع دقائق والدخان يخرج من مسام بدنى كلها كأنى بيت من الخشب اندلعت فى جوفه نار الحريق، كما رأيت أهل جدة يصنعون.

ولكنى ضبطت نفسى ورضتها على الحرمان من هذه المتعة البريئة، كما رضت شيطانى على الكف عن ابتغاء الويسكى، وآلمنى ذلك ـــ كما يسهل أن يدرك القارئ بغير عناء ـــ فرأيتنى أناجى نفسى وأعزيها بأن أهل جدة مدللون على خلاف أهل مكة ـــ هناك، أى فى جدة، يجتلى المرء مظاهر الترف والنعمة، ويحس أن للقوم دلالا على الحكومة ـــ أو دالة إذا شئت ـــ وأن الحكومة توليهم من الرعاية والمجاملة والتسامح ما ليس له مشبه فى مكة، وتطلق لهم فى أمور نصيبها منها فى مكة التشدد. ولقد قضينا فى جدة أياما لم نشعر فى خلالها بأن للحكومة وطأة تحس، ولكن أثر الحكومة ووجودها ملموسان فى مكة فى كل مكان.

وقد أكون أو لا أكون مبالغا فى هذا الذى عزيت به نفسى عن حرمانى لذة النرجلية، ولكنى أعتقد أنى غير مخطئ جدا فيما شعرت به من الفرق بين الحالتين فى جدة ومكة من حيث سلطان الحكومة، فإن قائمقام

جدة أى حاكمها، تاجر؛ هو يجمع بين التجارة وبين أعمال وظيفته. وخليق بالمصرى أن يعجب لهذا وأن يرى فيه شذوذا عن المألوف فى بلاده حيث لا يؤذن للموظف أن يشتغل بالتجارة، ثم إن من الحقائق التاريخية أن الجيش السعودى دخل مكة بعد فتح الطائف من غير أن يتلبث أو يتلكأ، ولكنه لم يقتحم جدة بل أقام حولها وعلى مسافة بعيدة عنها يضرب عليها حصارا خفيفا لينا لا يمنع أن يتصل ما بينها وبين مكة. ولعله فعل ذلك حتى لا يقطع المؤن عن مكة، ولكن من المحقق أن الدافع الأول إلى إيثاره الحصار واجتنابه أن يحاول فتحها عنوة أن فى جدة قنصليات أجنبية، وقدخشى السعوديون أن تصاب دورها أو أحد رجالها بسوء فتتذرع إحدى الدول بذلك وتتخذ منه مسوغا لاحتلال جدة أو غير ذلك مما يجرى مجراه، فبقى الجيش محيطا بجده شهورا حتى نفد المال وانقطعت موارده عن الملك السابق على بن الحسين، وتأخرت رواتب الجند وفشا عليه الأمر، فسلمت المدينة وأبحر منها على بن الحسين على بارجة بريطانية محتفظا من كل ملكه الذى نزل عنه «بسيارته وسجاجيده وخيله».

وكأنى بوجود الأجانب فى جدة قد جعل لها — مع الأسف — مركزا خاصا وبسط عليها ضربا ملطفا من الحماية العامة، وجعل الحكومة تتخذ حيالها مسلكا هو فى جملته ألين من مسلكها فى البلاد الأخرى. ويقينى أنه لو كانت الحكومة السعودية أقوى مما هى وأوفر عدة وأتم سلاحا وأقدر على الدفاع عن شواطئها وثغورها لاختلف الحال وتغير الموقف، ومن أجل ذلك يتوخى جلالة الملك ابن السعود السلم ويؤثرها على الحرب والنزاع، وذلك ليتسنى له أن يصلح أموره

ويرتب البيت، كما يقول الإفرنج. ويعالج مشاكله ويوطد حكومته ويقويها ويباشر مالا مفر منه من وجوه الإصلاح على قدر ما تسمح بذلك موارده.

وقصدنا بعد أن استرحنا إلى وكالة المالية، ويتولاها نجدى، قح، قال لى المستر فيلبى إنه من أمهر الرجال وأذكاهم وأحدقهم فى سياسة المال، وغرفته بسيطة وفيها مكتب أجلس أنا فى مصر إلى واحد أفخر مه وأجمل، وهناك تفضل سمو الأمير فرد لنا الزيارة وأذن أن نُصوّر معه، ثم رغبت الحاشية أن تصور هى أيضا فكان لها ما أرادت. والنجديون يسمون الصورة الشمسية «العكس» ولا يرون فى التصوير بأسا ولا يكرهونه كما كنا نسمع.

وفى وكالة المالية أُلقيت خطب ترحيب ــ لا أذكر الآن بمن على وجه التحقيق ــ وتهنئة للأمير جلالة والده بلا أدنى ريب. وهناك أيضا جىء باثنين من الحجازين. هما موظفان فى حكومته وعملهما طبع «طوابع البريد»، فقدمهما الوكيل إلى سمو الأمير وأطلعه على نموذج من الطوابع التى عملت تذكارا لهذا اليوم ــ يوم المبالغة.

وزرنا بعد ذلك المستشفى وهو رحيب يسع مائتى مريض، وبه أقسام شتى للجراحة والأمراض الباطنية، وأمراض النساء وغيرها، وفيه أطباء مصريون، وبئر ارتوازية حديثة تمده بما يحتاج إليه من الماء، ثم قصدنا إلى دار الكسوة التى أسلفت الكلام عليها، ومن ثم إلى التكية المصرية وهى تؤدى واجبا إنسانيا جليلا.

❁ ❁ ❁

وجاء وقت الغداء فتناولناه فى دار الضيافة على الطراز الأوربى أيضا؛ ولشد ما تمنيت لو نأكل مرة على الطريقة العربية أو البدوية ولكنهم فى الحجاز أبوا ذلك علينا وضنوا بمتعته، وأحسبهم توهموا أن إطعامنا على الطريقة العربية غير لائق، أو أن ذلك ينطوى إلى شيء من الاستخفاف بنا، أو هو ينافى ما يقتضيه واجب الإكرام.

ثم ذهبنا إلى السوق، وهو على المسعى. وقد كرهت أن أرى الدكاكين فى بناء الحرم نفسه، وملنا إلى حارة ضيقة شبيهة بخان الخليلى فى مصر. وفيها كل ما فى الخان، والتجار فيها خليط من أهل مكة والهنود والفُرس وغيرهم، وأكثر ما فى السوق هندى أو فارسى، ودخلنا دكان هندى طويل له مساعدان؛ فزاغت أبصارنا وضلت عيوننا بين الطرف المعروضة وكان كل امرئ يتكلم ويطلب شيئا ويسأل عن ثمنه، والمساعدان يقدمان ما نطلب ويحيلان من يسأل عن الثمن إلى الهندى الطويل، ولم يكن معى ولا مع زميل لى مال، فقد خلفنا ما معنا فى جدة، فاقترضنا من إخواننا، ولم تكن الأثمان معتدلة ولا الحساب بالنقود الحجازية بالذى يسهل فهمه، ذلك أن الجنيه المصرى يساوى عشرة ريالات حجازية، والريال عشرة قروش ونصفه خمسة وهكذا، ولكن الاطراد يقف هنا، فإذا ذهبت تحسب الجنيه بالقروش وجدته يساوى شيئا عجيبا: مائة قرش وبضعة قروش أخرى تكون تارة اثنى عشر قرشا وطورا أربعة عشر، وما أظن به إلا أن قيمته بالقروش تضطرب تبعا لحالة الجو، فما فى مكة ولا فى جدة بورصة، وإذا كانت القيمة ثابتة لا تتغير وكنت أنا المخطئ فالذنب للتجار وليس لى، فقد كنت أجد قيمة الجنيه عند

تاجر غيرها عند سواه، واتفق أنى كنت أتوغل فى السوق فألقيت القيمة تهبط بعد كل خطوتين قرشا، فخفت إذا أنا مضيت فى طريق داخلا فى السوق ألا أدنو من آخره إلا وقد صار الجنيه قصاصة ورق كالمعاهدات الدولية، بل خفت إذا أنا بلغت نهاية السوق أن أجد أنى أصبحت مدينا! لذلك ارتددت بسرعة ووليت خارجا ــ لا هاربا ــ إلى أول السوق. وفى يدى جنيه منشور ــ مما اقترضت ــ ألوّح به للتجار وأصيح رافعا القيمة بعد كل بضع خطوات:

«ألادو! ألا تريه! يابلاش! بمائة وعشرين! ألادو! بمائة وخمسة وعشرين..».

فلو طال السوق لرجوت أن أفيد الغنى أو أشترى مكة كلها بجنيهى! ولكن التجار أشفقوا وخافوا مغبة هذا التقدم فوقفوا فى وجهى يردوننى الى داخل السوق ويشورون فى وجهى كما يفل الناس ليصدوا جوادا جامحا! وتنبهت الحكومة إلى الخطر المحدق بعاصمتها فأقبل على واحد من كبار رجالها يقول:

«لقد ركب الأمير فهلم لتلحق به».

ولكنى كنت مشغولا بفرصة الغنى التى أتاحها لى ارتفاع قيمة الجنيه فى أول السوق وانخفاضه عند آخرها. فلم أعبأ به ومضيت أصيح:

«قبل أن نركب! ألادو، ألاتريه! أبيع بمائة وأربعين! هل من مزايد؟ بمائة وخمسين»؟

فجذبنى الرجل وفى وجهه كل أمارات الفزع والارتياع وصاح بى:

«يا أخى أجول لك! الأمير ركب يجب أن تلحقوا به لأن المسافة طويلة».

فأدركت أنه يريد أن يصرفني عن ربح حلال وقعت عليه بذكائي، فنحيته عني وانطلقت أعدو إلى أول السوق ثم وقفت ألهث وقدرت في نفسي أن تكون القيمة قد بلغت عشرة آلاف قرش، وهممت باستئناف المناداة وإذا بالقوم يحتملونني ويضعونني في السيارة! وانطلق بها السائق كأنه يفر من الموت، فقعدت وأنا أقول لنفسي: «إن هذا ليس من الإنصاف في شيء! وسأظل ما حييت أطالب الحكومة الحجازية بما أضاعت علي وبالتعويض أيضا! ولن يضيع حق وراءه مطالب». وغلبني النعاس في الطريق إلى جدة واستعنت بالأحلام عن حقيقة ما فاتني ــ كدأبي أبدا.

❁ ❁ ❁

والكندرة قصر على دقائق من جدة؛ وفيه نزل جلالة الملك عبد العزيز لما سلمت؛ واستقبل أعيانها وممثلي الدول فيها قبل أن يدخل جدة في اليوم التالي؛ وفي هذا القصر أقيمت حفلة الشاي التي حضرها الأمير وسبقنا سموه إليها؛ ولا عجب؛ فإن سموه يركب الرولزرويس ولا يتلكأ في الأسواق ولا يريد الغنى من راء اضطراب قيمة الجنيه بين التجار، ونحن نفعل ذلك ــ ولنا العذر ــ ونركب سيارة يأبى سائقها «صابر» أن يسرع بها لئلا يفسدها لأنها جديدة. ولأنه هو على ظرفه وفصاحته حنبلي جدا.

ولا حاجة بي أن أقول شيئا عن الشاي فإنه ككل شاي، وقد شربناه واقفين ــ كل نحو عشرين إلى مائدة مثقلة بأباريق الشاي واللبن وألوان الفطائر واللمائز والولائق والرصائع؛ وكان ممثلو الدول يحفون بالأمير، والقائم بأعمال المفوضية البريطانية ووزير الروسيا المفوض يتنافسان على

الحظوة عنده ويتسابقان إلى اكتساب وده؛ أما نحن الذين لم يكن لنا من عمل أهم فى الحجاز سوى بطوننا، فقد آثرنا مائدة أخرى ليسعنا أن ندخن كما نشاء، وقد حمدنا لهذين الممثلين المتنافسين أنهما شغلا الأمير عنا بإلحاحهما عليه ومطاردتهما له.

ثم خرجنا لنشهد عرض الجيش، فى الفضاء الذى أمام القصر، ووقف سمو الأمير وأدنانا من صفة لتتيسر الرؤية، فمر المشاه النظاميون فى ثياب الخاكى ومعهم أسلحتهم المختلفة؛ ثم تلاهم من سميتهم حينئذ الباشبزوق وأنا أعنى بهم البدو؛ فى ثيابهم الفضفاضه المختلفة الألوان؛ وكانو على كونهم بدوًا صفوفا متراصة لا تلتوى ولا تتعرج ولا تختلف كسوتها ولا يسبق جمل جملا، وعليها، «الرجاجيل» كما يسمون «الرجال» مثقلين بأدوات الكفاح، وأعقبت هؤلاء المدفعية بأنواعها من مدافع رشاشة وأخرى جبلية أو للميدان أو غير ذلك مما لا أحسن بيانه وتفصيله، فما أعرفنى رأيت من أنواع السلاح إلا ما يلعب به الأطفال فى الأعياد؛ ولقد كنت فى الحجاز كلما رأيت رجلا مدججا بالسلاح أدنو منه وأمد يدى؛ وقد هممت أن المس سلاحه وأتحسه بكفى - فلولا الخوف من أن يظنوا بى أنى أريد السرقة أو الخطف؛ لأمتعت نفسى بلمسه.

وأبصرنا من بعيد محملا صغيرا مقبلا علينا فعجبت لهم كيف يعدون المحمل المصرى صنما ثم يتخذون محملا مثله! وأشار الأمير بيده إشارة خفيفة لم يدرك أحد منا وقتئذ معناها أو المراد بها، وحسبناها أمرا بأن يكر الفرسان على نحو ما يفعلون فى الحرب، فقد عادوا واحدا فى أثر واحد يخطفون الأرض بخيلهم ويتصايحون وقد رفعوا الرماح أو صوبوا البنادق

أو شهروا السيوف، وأشهد أن مناظرهم كانت مزعجة وأصواتهم مفزعة، ولو رآهم القارئ وهم يعدون بجيادهم ويطلقون البنادق من وراء ظهورهم ويطعنون الهواء بحرابهم وشعورهم منفوشة. لحسبهم بعض الجن.

وصفق الناس والتفت الأمير باسما ودار ليرجع فسألت واحدا.

«والمحمل؟ لماذا لم نره»؟

فقال: «لقد غاب».

قلت: «غاب كيف»؟

قال: «لم يبق له أثر».

قلت: «ماذا تعنى»؟

قال: «أمر سموه به فأبعد».

وعلمنا بعد ذلك أن سموه كره لنا أن نرى هذا المحمل بعد أن انقطع المحمل المصرى، وكان أحد التجار قد صنعه وكساه من تلقاء نفسه فلما لمحه الأمير أومأ إلى حاشيته أن يردوه فأخطأوا فهم مراده فحملوا عليه وحطموه ومزقوه. فكأنه لم يكن!

إلى هذا الحد كان سمو الأمير دقيقا فى مجاملتنا ومراعاة إحساسنا.

❁ ❁ ❁

وقيل: اذكروا أنكم مدعوون الى مأدبة عشاء فى قصر الكندرة وأن هذه المأدبة رسمية تقيمها وزارة الخارجية أو إدارتها؛ وأن سمو الأمير فيصل سيحضرها؛ وأن ممثلى الدول الأجنبية سيشهدونها كذلك. فسألت عن موعد هذا العشاء فقالوا الساعة الثالثة بالحساب العربى؛ فتناولت ورقة وقلما وألقيت نظرة على ساعتى الأفرنجية وشرعت أحسب، ولا أكتم

القارئ أنى أخيب خلق الله فى الحساب، ولقد غلطت وزارة المعارف (المصرية) مرة ــ منذ نحو عشرين سنة ــ فكلفتنى أن أدرس هذا الحساب، فاعترضت واحتججت، فما أجدى عنى اعتراضى شيئا، فقصدت الى «ناظر» المدرسة الخديوية التى نقلت إليها ــ وكان انجليزيا ــ وقلت له: «إن وزارة معارفنا تعتقد أن كل امرئ يصلح لكل شىء؛ ولكنى أعرفُ من نفسى أنى لا أصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب خاصة؛ وأصارحك أنى لا أصدق أن واحدا فى واحد يساوى واحد «هذا» كما يقول شاعر عربى «كلام له خبىء؛ معناه ليست لنا عقول» وقد تكون أو لا تكون لنا عقول، هذه مسألة خلافية ندعها الآن، ولكن المحقق عندى أن العلوم الرياضية وفى جملتها هذا الحساب لا تدخل فى دائرة عقلى، فهل لك فى عونى على ما أريده»؟

فضحك وقال: «وماذا تبغى»؟

قلت: «تعفينى من التدريس للفرق العالية، وتقنع بأن تكل إلى تلاميذ الفرقة الأولى، أعنى الحاصلين على الشهادة الابتدائية فى هذا العام ليتسنى لى أن أحفظ الدرس أولا؛ ثم ألقيه عليهم، فنتعلم معا؛ وفى خلال ذلك تبذل وساطتك لتردنى مدرس ترجمة كما كنت».

فسرته صراحتى ووعدنى خيرا، وشرعت فى العمل، وكنت أحفظ الدرس جيدا وأراجع زملائى ثم أدخل على التلاميذ وألقنهم ما حفظت، وقد وفقنى الله فى الهندسة والجبر، أما الحساب فأعوذ بالله منه! كنت أخطئ فى كل مسألة أطرحها على التلاميذ، ولم أكن أكتمهم أنى أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لى، وأن الوزارة هى المسئولة عن خلطى

وتخبطى؛ وأُنصف التلاميذ فأقول إنهم قبلوا عذرى واغتفروا لى ضعفى وحفّونى بعطفهم ولم يبخلوا على بإيضاح ما يشكل علـى وبهدايتى إلى الصواب حين أضل؛ وكنا أحيانا ــ إذا استعصى عليهم إفهامى طريقة الحل ــ نقضى بعض دقائق فى ندب سوء حظى وحظهم، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت نفسه بالعطف علىّ والمرثية لى: «كيف ترتكب الوزارة مثل هذا الخطأ الشنيع فتعهد إلى تدريس العلم إلى جاهل به»؟

فيحمر وجهى أو يصفر ــ لا أدرى فما كانت أمامى مرآة ــ وأقول بلهجة الصابر على قضاء الله فيه:

«أنا عارف؟ قل لها يا سيدى! الأمر لله والسلام».

ولم ينقذنى إلا مفتش إنجليزى جاء على عادته ليشرف على سير الدراسة، فعلمت أنه مع الناظر فى غرفته، وكانت مجاورة للغرفة التى أنا فيها، فأوصيت الخادم ــ أو الفرّاش كما يسمونه ــ بأن يدعوه إلى حين يخرج، وفتحت الباب على مصراعيه، فلما دخل علىّ رحبت به واحتفيت بمقدمه وسرت به إلى مقعدى ومكتبى؛ وهناك سلمته كراسة التحضير وكراسة الأسماء، وأصبع الطباشير وممسحة السبورة وقلت له:

«التلاميذ أمامك، ومعك كراساتى وأدواتى فالسلام عليك ورحمة الله وبركاته». وخرجت، فجرى ورائى وأدركنى أمام غرفة الناظر وقال:

«ان هذا جنون. فعد إلى فرقتك».

فقلت: «جنون؟ وهل كنت تنتظر أن أظل عاقلا؟ لقد صارحتكم مائة مرة بأنى حمار؛ فماذا تريدون؟ إن لى ذمة، وذمتى لا تقبل أن أضيع على التلاميذ المساكين سنة من أعمارهم».

قال: «ولكنى أكدت لك أننا لا نجد مدرسا للرياضة فيحل محلك.
فانتظرْ حتى نجد واحدا ثم نعيدك إلى الترجمة».

فقلت: «كلا! تتولى أنت التدريس حتى تجدوا المدرس. وأنا مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفتيش».

فضحك؛ وضحك الناظر وكان قد حرج على صوتنا ولا أطيل؛ أقنعانى بالعود إلى فرقتى على ألا يطول عذابى إلا أياما معدودات؛ وقد كان.

وقد قصصت هذا التاريخ القديم ليعذرنى القارئ إذا كان قد عزنى أن أعرف الوقت بالحساب الأفرنجى، ولقد ملأت والله الورقة كلها بالأرقام لأعرف كم تكون الساعة بالحساب الأفرنجى فى الحجاز اذا كانت الثالثة بالحساب فى الحجاز أيضا، فألفيتها تكون كل ساعة ما بين الأولى والرابعة والعشرين. إلا التاسعة مساء كما زعموا، وقد اتفق مرة أن أنتج حسابى الساعة التاسعة ولكنها كانت التاسعة صباحا! فمزقت الورقة يائسا ورميت القلم من النافذة.

وملت الى واحد وهمست فى أذنه

«أرجو أن تصدقنى! كم ساعة باقية لنا قبل هذه المأدبة»؟

فأخرج ساعة ونظر فيها وقال «ساعتان ونصف».

فقبلته بين عينيه وقلت له: «إنك آية من آيات الله فى الذكاء وحدة الذهن. ولوكان الحسد فى طبعى لحسدتك. فإن من المدهش ولاشك أن تستطيع عمل كل هذا الحساب المضنى فى ربع ثانية! فتح الله عليك! فتح الله عليك»!

وخرجت أعدو إلى غرفتي ووقفت أمام المرآة وقلت لخيالى فيها.

«اسمع يا مازنى: إن هذه المأدبة رسمية وسيحضرها وزراء الدول وقناصلها فينبغى أن تكون فيها فخرا لبلادك وعنوانا على ما بلغته من الحضارة والرقى، لا عارا عليها وسبة لها؛ فالبس ثياب السهرة وإن كانت من طول ما طويت فى الحقيبة قد تجعدت وتثنيت وصارت كالوجه الذى غضنته الشيخوخة؛ ولكن هذا حرى بأن يغتفر فى الحجاز، وعندك فى هذه الحقيبة كتاب فى آداب السلوك فى المجتمعات فأخرجه وادرسه بسرعة؛ فإن فى ساعتين الكفاية، أفهمت؟ إذن فالى العمل»!

وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير وفتحتها بسرعة وأخرجت بذلة «الاسموكنج» والقميص الأبيض والرباط الأسود، وسائر ما تتطلبه هذه البذلة، ونضوت ما على بدنى من الثياب، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته وقعدت على السرير أدرسه وأنا نصف عار وأجريت عينى فى الفهرس حتى استوقفنى هذا العنوان: «فن الانحناء»

ففتحت الصفحة التى يشير إليها الفهرس وقرأت وأنا كالمسحور، ما ترجمته: «إن الانحناء، ولمن يكون، وكيف يكون، وفى أى وقت يكون؛ فن قائم بذاته؛ وإتقان ذلك وتجويده، والحذق فيه والأستاذية، أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب».

فخفق قلبى طربا وشاع فىّ السرور علوا وسفلا، وبعد أن قضى بدنى وطره من الوثب والقفز ـــ أو الرقص إذا آثرنا الرقة فى التعبير ـــ عكفت على الكتاب لألتهم منه هذا الفن الجليل فقرأت.

«وأول ما يجب على المرء، أن يكون وضع القدمين كأول وضع لهما فى الرقص».

فكفأت الكتاب على ركبتى وذهب أحضر إلى ذهنى وأتمثل هذا الوضع الأول فى الرقص؛ فطافت برأسى صور شتى للأقدام كما كنت أراها فى المراقص المصرية، غير أنه ما من صورة كانت تشبه الأخرى، فألحت على خيالى وكددت خاطرى وحصرت ذهنى فى هذا الموضوع وطردت عنه كل ما عداه حتى صار برأسى وليس فيه إلا أحذية «ضاحكة اللألاء» تروح وتجىء وتنساب تحت السيقان الـ....

وخفت أترقى فى التصور من الأحذية إلى ما فوقها فيتم فساد العمرة التى أفسدها المطوف وأشياء أخرى حدثتك عنها فيما أسلفت عليه القول.

ثم قرأت: «وترفع اليد اليسرى بخفة ورشاقة وتوضع أطراف بنانها على الصدر فوق القلب؛ ثم يحنى الرأس ويليه الجسم مما يلى الردفين. وتكون اليد اليمنى فى أثناء ذلك ترسم فى الهواء خطا مقوسا بلباقة وأناقة» ؛ ومما ينبغى توخيه والتدقيق فيه والحرص عليه أن «يكون تعبير الوجه فاتنا على قدر ما يستطيع صاحبه، ونظرة العينين سابية ساحرة أما درجة الانحناء فرهن بمقام الشخص الذى له التحية» إلخ إلخ...

وطويت الكتاب وأطرقت، فما كنت أظن الانحناء يمكن أن يكون عملا معقدا إلى هذا الحد! ومن لى باللباقة ومن أين جىء بالرشاقة إذا وسعنى أن أؤدى هذه الحركات؟ إن كل ما أحسنه هو أن أهزز رأسى متتابعا ــ من أعلى إلى أسفل، أو من اليمين إلى اليسار ــ إذا أردت

الإعراب عن الموافقة أو المخالفة كسلا منى عن النطق بنعم أو لا، وقد ألاقى فى الطريق بعض من أعرف وتكون بينى وبينه مسافة تمنع الكلام فأحاول أن أومئ إليه برأسى وإذا به يتجهم ويحدجنى بالنظر الشزر، فأعجب لسوء أدبه فى رد التحية، وقد تبينت فيما بعد أنى لم أكن أهز رأسى بل أحرك حاجبى فكان الناس يحملون هذا منى على محمل السخرية ولو علموا لعذروا.

وقلت أتدرب؛ فوثبت إلى قدمى واستويت واقفا أمام المرآة وقلت وأنا ابتسم لخيالى فيها وأنحنى:

«يا سيدى الأستاذ المازنى إنى أحييك وأؤكد لك أنى خادمك المطيع وأدعو لك بطول العمر». ثم اعتدلت بسرعة فقد شق علىّ منظرى؛ وكنت لا أزل نصف عار، وعجلت بارتداء الاسموكنج حتى إذا فرغت من ذلك خرجت أتخطر وأنحنى بعد كل خطوتين أو ثلاث أنحناء عميقا كأنى ماثل بين يدى ملك الملوك على الأقل أو أفتن امرأة فى العالم واذا بطربوشى تكبسه على رأسى بطن الخادم فتراجعت قليلا لأفسح لنفسى ورميت إليه انحناءه عميقة وقلت وعلى فمى ابتسامة لم يخالجنى شك فى عذوبتها وسحرها: «سيدى، إنى أعتذر وأحيى فى شخصك فضائل الطاعة والإخلاص والأمانة».

فارتبك المسكين وجحظت عيناه وتصبب العرق البارد من جبينه، وصار يتلفت يمنة ويسرة كالذى يبحث عن نافذة يثب منها حتى إذا وقعت عينه على الباب؛ ولّى هاربا؛ فتلبثت... هنيهة أصلح من شأنى وأرد طربوشى عما جار عليه من وجهى ولما أجد أمامى أو معى أحداً من

خلق الله استقبلت الباب وألقيت. إليه انحناءة بارعة وإذا بأصوات من خلفى تصيح بى:

«ايه ده بس فى عرض النبى؟ طلعت البلا على جتة الخدام».

فدرت على عقبى وجدت عليهم بانحناءة متقنة وقلت وأنا أرسم بيمناى قوسا مزدوجا:

«سادتى، إنى عبدكم الخاضع المطيع وخادمكم الوفى الأمين».

فقال أحدهم وهو يشير بكلتا يديه كأنما يطرد عن وجهه جيشا من الذباب: «خادم إيه وزفت إيه؟ هل جننت حتى تنحنى للباب وللخدم والهواء؟ ما معنى هذا»؟

قلت: «عفوا، ولكنى أظن المعنى واضحا جدا. وكل ما فى الأمر أن الشوق إلى الانحناء لج بى ولما أجد خيرا من الخادم أو الباب لم أر أن هذا من حقه أن يحول دون إطفاء حرارة الشوق الذى أكابده؛ فأما وقد تفضلتم على بالظهور لى فى الوقت المناسب فاسمحوا لى أن أقوم بتجربة أخرى علىّ مرأى منكم وأرجو أن تجعلوا بالكم على الخصوص — إلى سحر ابتسامتى فإننى أريد أن أطمئن عليها».

ورددت قدمى اليسرى خطوة ورميت إلى كل منهم انحناءه باهرة، فوجموا قليلا ثم راحوا يدقون كفا وقال أحدهم.

«هذا جنون مطبق».

فقلت «كلا! ولكن عندى كتابا يؤكد واضعه أن الانحناء البارع أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب. وأنا مستعد أن أعيركم إياه فإن العلم بما فيه ينقصكم على التحقيق».

ولا أطيل، عراهم سهوم الحسد فجلسوا صامتين برهة ثم نادى أحدهم الخادم، أو صفق له على الأصح، وقال لى قبل أن يدخل الخادم.

«لا أدرى من أين تجىء بهذه الكتب، وإن كنت عظيم الشك فى وجود كتاب كهذا؛ ولكن الذى أريده أن الخادم قد ارتاب فى عقلك فأرجو ــ ألح عليك ــ أن لا تفعل أمامه شيئا وكفى ما فعلت».

فلم أعلن بالرد عليه وشربت القهوة التى طلبتها فى صمت، فقد كنت راضيا عن نفسى معتزا بما أحرزت دونهم من براعة وحذق.

❁ ❁ ❁

والجو فى الليل يترد فى جدة؛ وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء (بالحساب الأفرنجى) على ما زعموا حين أُعدت لنا السيارات لركوبها إلى الكندرة، فقلت لسائقنا الجديد وكان هنديا ــ فقد هجرنا صابر وملّنا وجفانا بعد مكة ــ وأنزل الغطاء فإنى أريد أن تكون السيارة مكشوفة.

فصاح زميلى «ولكن الجو بارد والرياح عنيفة».

فقلت: «اسكت أنت من فضلك. أتريد أن تحرم أهل جدة منظرنا فى ثياب السهرة! إنه منظر لا يرونه إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة، وحرام علينا أن نضن به عليهم».

فقال: «يا أخى إن الطريق صحراء لا ناس فيه ولا شجر، فاصنع معروفا ودع الغطاء مرفوعا».

قلت: «كلا أنا أيضا لا ألبس الاسموكنج كل ليلة، وليس من الإنصاف لى أن أرتديها وأتحمل عذاب هذه البنيقة (الياقة) الناشفة وأن أختفى وأتوارى عن العيون. إذا لماذا تجشمت كل هذا التعب»؟

ولا أحتاج أن أقول إن زميلى فى السيارة اقتنع بسداد رأيي.

وإننا ركبنا السيارة مكشوفة وخرجنا بها من جـــدة إلى الـــصحراء فى طريقنا إلى الكندرة؛ ولم تكن المسافة طويلة فقد كنا نرى أضواء القصر بعد أن جزنا سور جدة، وكان القصر يعج بالناس ويزخر بالضيفان، فجعلت أطواف بالحجرات الغاصة بالخلق وأعجب أين ترى سنأكل وليس فى القـــصر شـــبر خال؟ وضحكت فى سرى وقد تذكرت قول المتنبى فى كافور:

جوعان يأكل من مالى ويمـــسكنى كيما يقال: عظيم القدر مقصود!

وخطر لى أن هذا حالنا! نُدعى مئات الى القصر ونُحجـــز فيـــه ولا طعام وأستحييت أن أسأل وأنسانى القلق على العشاء؛ والخوف من عض الجوع، ما أتعبت نفسى حتى مهرت فيه ــ أعنى الانحناء ــ ولكن وجهى كانت مرتسمه عليه ابتسامة تشجع الناس على المصارحة فدنا منى واحد وقال: «سيدى، إنى تحت أمرك».

فحملق فى وجهى وتلعثم. ولا عجب فما له العهـــد بمثـــل هـــذه الأستاذية؛ ولم يزد على أن قال «تفضل».

فجدت عليه بانحناءة أخرى أدق وأبرع وقلت:

«سيدى، إنى أرجو أن تقبل شكرى الخالص الذى يفيض به قلـــب يعرف الجميل ولا ينكره و...».

فهرول الرجل، وبدا لى أن الحزم أن أهرول وراءه لئلا يهـــرب أو يختفى فى الزحام؛ والدنيا كما تعلم فرص، والضيوف هنا مئـــات، وأى طعام يمكن أن يكفى هؤلاء جميعا؟

وانحدر دليل الهارب، من سلّم خلفى لم أره من قبل ولم أفطن لوجوده لأن عليه أستارا مسدلة تحجبه؛ وانحدرت وراءه إلى الصحراء، أو على الأصح إلى رقعة اقتطعوها منها وأحاطوها بسياج من نسيج الخيام الموشى وأضاءوها بالكهرباء والغاز أيضا على سبيل الاحتياط؛ ومدوا فيها الموائد على شكل مستطيل ورتبوا المدعوين بأسمائهم، فلكل مكانه الذى لا يعدوه، واعتدوا لكل واحد ما يحتاج إليه من الأطباق والملاعق والسكاكين وغير ذلك على الطريقة الأوربية؛ وأقاموا فى قلب المستطيل فوق بئر يسقى منها القصر، شبه مسرح زينوه بسعف النخل ورفعوا عليه صورة كبيرة لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود، وجعلوا فوقها رايتهم وهى «بسم الله الرحمن الرحيم» وعليها سيفان لاشك أنهما ماضيان. وقد أعجبنى ذوقهم فى حجب البئر عن العيون وحيلتهم بالانتفاع بها واستخدامها.

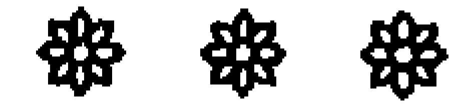
وآن أن يطعمونا؛ وكان هذا قد آن قبل ساعة، فجلس سمو الأمير فيصل فى الصدر وإلى يمينه معتمدو الدول الأجنبية؛ وإلى يساره زكى باشا ونحن نتلوه، وبين كل اثنين منا رجل من كبراء الحجازيين، وتوسط فؤاد بك حمزة مدير الشئون الخارجية ضلعا آخر من المستطيل وعلى يمينه ويساره قناصل الدول وفى جملتهم قنصل مصر وإن كان غير معترف به؛ وهم يدعونه بصفة غير رسمية إلى الحفلات ومآدبها على الرغم مما بين البلدين من الجفوة الحكومية المتكلفة التى لا مسوغ لها.

وكان أمام كل نحو ثلاثة من الضيوف ـــ فوق المائـــدة ـــ كرســـى واطئ عليه طشت كبير غاص بالأرز المحمر المخلوط بالصنوبر والزبيـــب وما إلى ذلك وفوق هذا كله كبش محمر تفوح رائحته المغرية وتتـــضوع إلى أنوفنا فننظر إلى الأمير نراه يمسه فنكف ونتنهد، وقد طـــافوا علينـــا بتسعة عشر لونا من الأطعمة الشهية حتى اكتظظنا جدا ولم نعد نستطيع أن نتنفس، وبرزت صدورنا وصارت لنا كروش كروية عظيمة، وعلـــى كثرة ما أكلنا؛ أعترف أنى قمت متحسرا على الخـــروف الـــذى كـــان أمامى، ولا أدرى لماذا يذبحون كل هذه الخراف الجميلة ويحمرونهـــا إذا كانوا لا يأكلونها ولا يدعوننا نصيب منها شيئا؟ قد خامرنا الشك فى أنها خراف حقيقية كانت قبل ساعات تثغو وتقول «ماء! ماء»! وقلت رسوم مجسمة على صور الخراف، ولكنى لم أر أثرا لهذا الفن فى الحجاز.

ويخيل إلىّ أن حكومة الحجاز تعتقـــد أن ضـــيوفها شـــرهون؛ وإلا لتوخت بعض القصد فيما قدمته من صنوف الطعام، فإن ما أدير علينـــا كان يكفى أمة بأسرها، على أن العرب جميعا يبـــالغون فى مقـــدار مـــا يطمعون ضيوفهم، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة البداوة وما ورثـــوه مـــن أخلاقها وعاداتها، لكنه إسراف على كل حال، ولو كان لى مـــن الأمـــر شيء لطلبت الحجر على الحكومة والناس جميعا هناك.

وخطب فؤاد بك حمزة فى ختام المأدبة لمناسبة انقضاء عام على مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز، فبيّن ما قامت به الحكومة السعودية مـــن

الإصلاح وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة؛ ورحب بالمدعوين جميعا وخصنا نحن المصريين بالذكر الطيب وأعرب عن أمله أن نكون رسل سلام ووئام بين الشعبين الشقيقين، فأجابه زكي باشا بالنيابة عنا وشكر وأثنى كما ينبغي ثم تحمس فانطلق يخطب بالفرنسية ليفهم عنه الأجانب، ولم يفته أن يشنع علينا لأنا طفنا بالسيارة متخذا هذا دليلا على أن الإسلام يتسع لكل ما تجيء به الحضارة؛ ونسى ــ عفا الله عنه ــ أن طوافنا بالسيارة كان بإذن سمو الأمير فعلى الأمير حسابه.



# فى وادي فاطمة

كان بيتنا أعنى بيت العوينى – فى طرف المدينة – أعنى جدّة – أو لعل هذا مبتدأها فما أعرف أين بدايتها وأين نهايتها، وكل ما أدريه أنه قريب من البوابة المؤدية إلى طريق مكة والمدينة، وأنه – أى البيت لا الطريق – يطل على البحر وعلى ما كان فى عهد الأتراك يسمى «الكازينو»، وهو الآن مهجور، وكان يومنا الخامس هو الخميس، وهو اتفاق لم نتعمده، وفى صبيحته احتشد عندنا كل زملائنا إذ كنا على طريقهم، وكان الغداء فى وادى فاطمة، وكانت السيارات أمام الباب تدور وتلف وتصطف استعدادا للسير، فجلسنا نشرب القهوة المصرية – أو التركية كما يسمونها – ونتلاغط ونتكلم جميعا فى وقت واحد ولا يصغى أحد منا إلا لنفسه.

ثم قيل: «تفضلوا» فتفضلنا، أعنى أن بعضنا وقفوا ثم نظروا إلى الباقين فألفوهم جلوسا، فقعدوا مثلهم؛ فسئلوا «لماذا قعدتم»؟ فقالوا: «حتى يقوم هؤلاء» فمضى الداعى يستنهض الآخرين ويشد أذرعتهم وهم معرضون عنه ماضون فى كلامهم، ويكرر لهم دعوته أن يتفضلوا فيقوم الواحد منهم متثاقلا وكأنه لا يعى ما يفعل، ولسانه لا يكف عن الكلام ووجهه لا يثنى عن الإعراض، ثم نسير خطوات فيقف واحد ويواجه الباقين ويضطرهم إلى الوقوف والإصغاء، حتى على السلم كان

هذا يتكرر فكان يتفق ونحن نازلون أن يقف واحد بغتة ويدير إلينا وجهه، وتكون أرجلنا مهياة فى هذه اللحظة للهبوط وأجسامنا محنية؛ فنردها - أعنى أرجلنا - بسرعة، ونستوى واقفين فتصطدم الرؤوس بالصدور التى وراءها، وترتفع الأصوات بالسخط وألفاظ الاحتجاج والاستهجان... وهكذا.

وأجلت عينى فى السيارات وسائقيها، فاذا (صابر) ـ ذلك الغلام الحنبلى ـ قد جفانا وآثر علينا سوانا، فترقرق الدمع فى عينى وتدلى رأسى على صدرى، فقد كانت صحبته رضية، وحديثة شهيا، وهو على الرغم من شبابه اليافع فتى مخضرم إن صح هذا التعبير، أعنى أنه أدرك جاهلية الحسين وعهد ابن السعود، فأفاده ذلك حكمة ليست لسنه وكياسة لا تكون مع الشباب، وعلما بالدخائل واطلاعا على الخبايا، فقد كان كما أسلفت القول فى موسيقى الحرس الخاص بالحسين وبنيه، وهو الآن عامل فى شركة القناعة للسيارات. غفر الله له وعفا عنه فإنه مصرى مثلنا.

وافسحوا الطريق وانطلقت السيارات. وعزائى أن سائقنا الهندى لا يعرف الطريق ـ ولا العربية ـ وأن (صابرا) الذى هجرنا، أمره ـ لا أدرى بأية لغة فما فهمت كلمة من حديثهما ـ أن يتبعه ولا يسبقه، كذلك قال لنا صابر مترجما، فأدركت أن فى (صابر) رقة على الرغم من حنبلية مظهرة.

والطريق إلى وادى فاطمة هو عين الطريق إلى مكة، ولكنه ينحرف عنه قبلها ويذهب يسره ويصبح بعد ذلك وعرا، كله حفر ونقر وصخور وتراب، وكان الهواء قد أسكرنى فنمت ومن عادتى إذا كربنى هم أن

ألتمس السلوان فى النوم، وأن أتعزى بالأحلام وأضغاثها عن الحقائق ومرارتها، وهذا من فضل الله عليّ، ولكم قلت لمن يحلو له أن يهجرنى ويحسب أنه بذلك يعذبنى: «إذا كان فى وسعك أن تصد عنىّ فإن فى مقدورى أن أصد عن الدنيا كلها والحياة بأسرها انظر». ثم أضع رأسى على الوسادة وأغمض جفنى وأقول: بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله الحى القيوم الذى لا ينام، وأهب من فورى إلى وادى الأحلام.

ولكنا لم نكد نميل عن طريق مكة الممهد حتى استيقظت والشرر يتطاير من عيني، فقد توهمت أن زميلى ضربنى على رأسى وكبس طربوشى على أذنى، وهممت بأن أمسك بتلابيبه ــ أعنى بربطة رقبته ــ وفى نيتى أن أضيقها على عنقه حتى يختنق، ولكن الطريق عاجل السيارة بحفرة أخرى، وإذا بى ارتفع عن مقعدى ــ وحدى بلا معونة ــ وأطير بقدرة الله حتى أبلغ السقف، ثم انحط كالحجر، وإذا بطربوشى قد غطى عينى أيضا وهو إلى أرنبة أنفى. ففهمت. وحاولت أن أخرج رأسى فلم أستطع، فشددت الطربوش من زره، فبقى الطربوش فى مكانه وخرج الزر فى يدى، فأهبت بزميلى الراكب معى أن يساعدنى. وكان لسوء الحظ نائما، وكنت أنا بفضل الطربوش لا أراه ولا أعرف ذلك فحسبته يتعمد أن يمنع عنى معونته، وغاظنى هذا منه، وذكرت مثلنا المصرى العامى القائل: «ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة، خسرانة» فتوكلت على الله ونطحته فى كرشه ــ فقد كان ذا كرش كما نسيت أن أخبر القارئ ــ فهب مذعورا يقول «بع بع» واندفعت كلتا يديه إلى كرشه فوقعت على الطربوش ــ وكنت أهم بنطحه مرة أخرى ــ فتزحزح إلى آخر المقعد اتقاء للنطحة، وأحسست أصابعه على حافة

الطربوش مما يلى أذنى! فجذبت رأسى الى الوراء فجأة وبقـوة فخـرج الطربوش فى يديه مقلوبا فاعتدلت وقلت له.

«أشكرك يا صديقى. والآن هل معك دبوس»؟

فصاح بى: «ما معنى هذا؟ أريد أن أفهم! حالا»!

قلت: «معناه أن زر الطربوش فى يدى، وأنه لا يليق أن أبدو للناس هكذا ــ أعنى بغير زر، فهات دبوسا واكسب الشكر من صديقك».

قال وهو مقطب «ولكن هـذا لا يليـق. واذا كنـت حـضرتك تظن...».

فقلت أقاطعه «تمام، لا يليق أبدا. ولذلك أرجو أن تعطينى دبوسا. ثم إن اسمى ابراهيم أفندى عبد القادر المازنى».

فقال وهو يمط شفتيه اشمئزازا.

«يعنى حضرتك فاهم...».

فأسرعت إلى إتمام الجملة بدلا منه «... إنى لا أسـتطيع أن أظهـر بطربوش ليس له زر، بالضبط، واسمى ابراهيم أفندى عبد القادر المازنى».

فشور بيديه كلتيهما وقال «أوه...! ده شىء يجنن»!

ثم عاد فالتفت إلى وقال: «يعنى ازاى حضرتك تنطحنى؟ عمرى ما شفت كده! دى رحلة زى الزفت»!

فقلت: «إنى أراها على عكس ذلك.. أجمل رحلـة قمـت بهـا فى حياتى، وأرجو أن نقوم بها معا مرة أخرى».

ويظهر أنه يئس وفوض أمره لله ولسوء حظه فأعرض عـنى وهـو يقول: «أبق دور على غيرى».

فقلت: «إن شاء الله، وإن كان هذا من دواعى أسفى ـــ أعـــنى فى المستقبل، وفى أثناء ذلك أرجو أن تعطينى دبوسا».

فلم يعد يستطيع أن يكظم غيظه وسخطه ونقمته وصاح:

«دبوس إيه يا أخى؟ هو أنا دكان مانيفاتورة؟ ولا حضرتك بتتريق؟

فقلت «معذرة. ليس بى حاجة الى الدكان كلها. إنما أريد منـــها دبوســا واحدا ـــ أو إبره إذا أمكن، بل الإبرة خير، وأرجو أن تذكر أن اسمـــى إبراهيم أفندى عبد القادر المازنى».

فضحك أخيرا بعد أن أدرك مرادى وقال: «طيب وحياة أبوك تبعد عنى بقى يا إبراهيم أفندى يا عبد القادر يا مازنى».

فانصرفت عنه إلى السائق وأشرفت عليه من ورائـــه لأرى هـــل فى صدره دبوس أو نحو ذلك. ففزع الأبله واضطرب وارتفعت يداه عـــن عجلة القيادة فكادت السيارة تنقلب بنا فى حفـــرة لـــولا أن أســـرعت ومددت يدى إلى العجلة وحولت السيارة عنها ـــ أعنى عن الحفرة.

ولا أطيل، اضطررت أن أحمل طربوشى فى يدى. وأن أشكو حرارة الشمس ووقدها حتى وجدت من يعيرنى دبوسا أصل به الـــزر إلى عنـــق الطربوش حتى نعود إلى جدة.

ووادى فاطمة واد ـــ كما هو ظاهر بالبداهة ـــ ولكنـــه غـــير ذى زرع كثير؛ فيه نخيل وأعناب؛ وفيه موز وباذنجان، وطمـــاطم وليمـــون، وملوخية وبامية، وأحسب هذا كل ما فيه أو أكثره وله عين يترقرق منها الماء ويجرى فى مجرى ضيق يستطيع المرء بأيسر مجهود أن يتخطـــاه مـــن جانب إلى جانب، وإذا وضع يده فيه أى فى الماء ـــ لم تبتـــل إلا عقلـــة واحدة من أصبعه، وهم مع ذلك يباهون به ويعتزون، وقد هززت رأسى

أسفا حين رأيته ــ أعنى الماء ــ وقلت لواحد كان واقفا إلى جانبى وأنا أقوم بهذه التجارب: «إن لنا فى مصر نهرا عظيما ينبع فى جبال القمر على قول، ومن الجنة على قول آخر أظنه الصحيح، ويقطع فى طريقه إلى البحر آلاف الفراسخ، وتستطيع الأساطيل الضخمة أن تغرق فيه إذا شاءت، ومع ذلك لا يكفينا ولا نقنع به، ولا تزال بلادنا أكثرها صحراء بلاقع كما هى هنا. فالحق أن بلادكم أو على الأصح فدافدكم، تعلم الزهادة وتروض النفس على القناعة».

وهناك فى قلب الوادى رأينا الخيام مضروبة، واحدة للأمير وأخرى للاجتماع، وثالثة لموائد الطعام، فقد جلبوا إلى الصحراء أدوات الطعام كاملة لا ينقصها كوب من الزجاج ولا سكين ولا ملعقة، وقد عجبت لهم كيف استطاعوا أن ينقلوها من غير أن تتحطم الآنية كلها!

وكان الأمير قد سبقنا، والمكان قد ازدحم، وحف ممثلو الدول بالأمير فجاءونا بكراسى وصفوها أمامه فجلسنا بينه وبين الناس، وبدأوا يلقون الخطب وينشدون القصائد بين يديه، يمتدحون فيها العهد السعودى ويصفون ما بلغت البلاد فى ظله وبفضله، وساءنى أن التلاميذ شجعهم أساتذتهم على المبالغة والغلو، ولم أرتح إلى سماع كلمات: «العلا والمجد، والقمة، والسنام» الى آخر ذلك مما زعم التلاميذ فى خطبهم أن الحجاز ارتقى إليه، وقلت لجار لى ــ وأظنه كان حجازيا: إن هذه المبالغات السخيفة هى داؤنا جميعا، وإننا جميعا ــ فى مصر، والشام، والعراق، والحجاز الخ ــ أحوج إلى مواجهة الحقائق وفتح العيون على الواقع وقياس ما بيننا وبين من سبقنا من الأمم، وإن من الإجرام أن نخدع

أنفسنا ونغالطها فى هذه الحقائق، ومن الجناية أن تنشئوا هؤلاء الأطفال على التوهم أن بلادهم بلغت أوج المجد وارتفعت إلى قمة العلا وغير ذلك من الكلام الفارغ. وأنه أجدى عليكم أن يعرف كل امرئ مبلغ ما يطلب منه فى سبيل بلاده لتتهيأ نفسه لبذل الجهد الذى يحتاج إليه، وضربت له مثلا فقلت: إنى قد أرى شيئا أتوهمه خفيفا فأمد إليه يدى لأرفعه وأنا غير محتفل، ويتفق أن يكون ثقيلا على عكس ما تصورت، فأعجز، وأخسر وقتا وجهدا فى غير طائل، ولكنى، اذا عرفت إنه ثقيل، أشد أعصابى وأوحى إليها أن تستعد لجهد عظيم يناسب ثقل الشىء الذى أريد رفعه أو حمله، فيجىء المجهود معادلا للمطلوب فأنجح، وهكذا فى غير ذلك، فى صغار الأمور وكبارها، فلا تغشوا أنفسكم فإن هذا شر ما تسيئون به إليها،ولا تستهينوا بكلام تظنونه يذهب فى الهواء، فإنه لا يذهب فى الهواء بل يتقرر فى ثرى النفوس ويرسخ فى العقائد ويستكن فى ضمير الفؤاد من حيث لاتشعرون، وإذا كان كل مرادكم أن تثيروا الشعور بالعزة القومية، فإن لهذا سبلا أخرى، ولا خير على كل حال فى الفخر الأجوف.

وكان بين الشعراء رجل من الكويت – إذا كانت ذاكرتى لم تخنّى – وشعره سخيف ولكنه إنشاده بديع وقد كان وهو يلقى قصيدته الطويلة – يغنى ويمثل، وأشهد أن صوته صاف خالص كصوت الفضة، وأن غناءه بارع وخال من التخنث والتطرى، وأن تمثيله حسن مطابق للمعانى مؤد لها على وجه الإحكام.

وتلاه شاعر نجدى قح أعوذ بالله من إلقائه، فليته جاء قبل الكويتى، ولكنه أبى إلا أن يجيء قبل الطعام فكاد يصدنا عنه ويفتر رغبتنا فيه، ويزهدنا فى الشعر والأدب والعرب، بل فى الحياة نفسها فأعوذ بالله مرة أخرى وثانية وثالثة من إلقائه، وسأظل أستعيذ بالله منه كلما ذكرته فإنه يفسد علىّ نومى، ويسود العيش فى عينى، ويغثى نفسى ويكرب صدرى، وقد ضرست أسنانى لما سمعت صوته، وأحسست كأن الحكة قد شاعت فى جلدى — أعنى الجرب والعياذ بالله مرة رابعة منهما أعنى الجرب والصوت — وإنى لأوصى الحكومة الحجازية أن تقطع ألسنة الشعراء النجديين إذا كانت أصواتهم منكرة كهذا الصوت، فان البكم خير ألف مرة، وهذا الصوت — إذا كان له مشبه — خليق أن يغرى الخلق بالفتنة والتمرد ويدفع الرعية إلى الانتفاض والثورة.

وقمنا إلى الطعام بعد هذا البلاء الشعرى، وكانت ألوانه — أعنى ألوان الطعام لا البلاء — مغرية، وكانت الخراف الشهية فى الطشوت، تخايلنا، فسألت: هل هى للزينة كما كانت فى مأدبة الكندرة أم للأكل؟ فضحكوا وقالوا بل للأكل، فألقيت السكين والشوكة، وشمرت كمى ونهضت عن الكرسى وقلت لعبد من الواقفين:

«ارفع هذه الصحون من أمامى وأفسح لذى القرنين، فإنى أراه لايزال ذا قرنين على الرغم من الذبح والسلخ والشى والتحمير — هات عجّل، يا عبد الله «وليسامحنى الأمير، فإنى لا أحب المغالطة».

فلما فعل — أعنى العبد لا الأمير — دفعت يدى فى خاصرة الخروف فلم أكد أفعل حتى ندت عن صدرى صرخة من الطبق العالى الذى يوقظ

الموتى فى قبورهم، وإذا بى أدور على عقبى، وذراعى فى الهواء وأصابعى مدلاة، وفمى ينفخ ويقول «فو. فو. » من لسع النار التى فى حاضرة الخروف!

فبذمتى ليس هذا من الكرم فى شيء! يجيئوننا أولا بهذا الشاعر النجدى ينغص عيشنا ويشعرنا غصص الموت فى حياتنا بل فى شبابنا ـ فقد كنا جميعا شبانا فى الحجاز حتى زكى باشا ـ ثم يثنون بهذه الخراف التى حشوا بطونها جمرا متقدا، ويزعمون أنهم يطعموننا ويكرموننا؟ لماذا إذن كانت ألوان الطعام الأخرى لا تلسع ولا تحرق؟ أليس من الواضح أن هذا تدبير مقصود؟

ومال الأمير ـ بعد الطعام إلى خيمته ليستريح؛ وملنا نحن إلى النخيل نحتمى فى ذراه من الشمس. وارتمينا على الرمال وأشعلنا السجاير وذهبنا ندخن وإذا بثلاثة من الجنود النجدية يجرون إلينا واحدا بعد الآخر ويسألنا كل منهم بدوره.

«معك شيء من العكس»؟

فلم أفهم ما العكس الذى يطلبون شيئا منه، وحسبتهم يعنون الدخان فأخرجت علبة السجاير وعرضتها عليهم فتناولوا منها وعادوا يسألون عن «العكس» هل معنا منه شيء؟ فقلت لعله طعام أو شراب، وأشرت الى خيمة المائدة وقلت:

«هناك. لقد تركنا الخراف والله سليمة أو كالسليمة، فعليكم بها أن كنتم تعنونها والأمر لله. أما إذا كان شرابا ما تطلبون فهذا هو الماء يجرى عند أقدامكم فانكفئوا عليه وعبوا واكرعوا منه».

فمضوا عنى وهم يبتسمون وكأنى كنت أخاطبهم باللغة الأرديـــة. وقد علمت بعد ذلك أن العكس معناه فى اصطلاحهم الصورة، وكـــان الباعث لهم على طلب الصور منا أن رياض أفندى شحاته أعد نحو ألف صورة ــ فى حجم بطاقة البريد ــ لجلالة الملك ابن السعود وفرق أكثر ما معه فى وادى فاطمة، فتوهموا أن كل مصرى مصور ورياض أفنـــدى أيضا! وليتنى كنته! إذن لاستغنيت عن هذا الكتاب ولما أصبحت أتجشم تعب التسطير والتحبير ونفقات الطبع والنشر.

ثم عدنا إلى خيمة الاجتماع وكانت غاصة، ولم يكن الأمـــير قـــد حضر، فطافوا علينا بأقداح القهوة فى قعورها رشفة؛ فعدت إلى الاجتماع وظللت أستزيد حتى فر الساقى واختفى. ولما جـــاء الأمـــير اســـتؤنفت الخطب ودُعى زميلنا خير الدين أفندى الزركلى الشاعر السورى فأنشد قصيدة حماسية هى كل ما خرجنا به فى يومنا ــ بل فى رحلتنا كلـــها ــ من الكلام الرصين الجيد، فنهض أحد السامعين من البدو، وقد طـــرب، وخلع عليه سبحته، وهم آخر أن يخلع عليه عباءته، ولكـــن إخوانـــه ــ أعنى إخوان الزركلى... خافوا إذا توالت الخلع أن ينوء بحملها فـــصدوا الناس عنه وحموه ــ هذا الا.. أعنى الخير.

وإنا لكذلك وإذا بزكى باشا يدخل كالمدفع، وصوته يسبقه، ومـــن ورائه السيد عبد الوهاب نائب الحرم، فصفق له الناس فوقف يعتذر فقال كلاما أرعبنا، ذلك أنه التفت إلى الأمير وانطلق يقول إن أهل الحجـــاز وعمال الحكومة يزعمون أن الأمن شامل ولكنه تبين أن هـــذا كـــذب، ويرى من واجبه أن ينبه الأمير الى الحقيقة ويطلعه عليها ويصدقه فيهـــا، فقد كان مستلقيا فى ظل النخيل فسطا عليه لص وسرقه.

وهنا وثب الناس إلى أرجلهم ساخطين مستنكرين، وقلت لجارى لقد خولط الرجل! أما كان يستطيع أن يسكت؟ ألا بد من أن يعلن ذلك على هذه الأملاء كلها؟

ووجمنا، ووددت لو أنى تأخرت ــ وأدركت زكى باشا قبل أن يدخل، لأحمله على الصمت وأصده عن الكلام، غير أن ذهولنا لم يطل فقد اندفع زكى باشا يشرح الموضوع وإذا كل ما يعنيه أن السيد عبد الوهاب محدث ظريف وأنه سرق وقته وأنساه الاجتماع والخطباء بحلاوة حديثه وقدرته على الافتنان فيه!

وقد عنيت بأن أذكر هذه الحادثة التافهة لأنى أريد أن أخص السيد عبد الوهاب بكلمة؛ فإنه بلاشك أبرع محدث وأظرف رجل عرفناه فى الحجاز، وقد تعلم فى الآستانة وأتقن التركية والفرنسية فضلا عن لغته العربية؛ وعرف الأيام كما عرفها المتنبى ولكنه ظل مع ذلك رجلا عطوفا فيه رفق ورحمة ودماثة ومروءة، وليس فى الحجاز من لا يأنس بمجلسه ويشتهى حديثه، وهو على ظرفه وفكاهته كيّس وقور، ذو رأى أنضجته السن والتجارب، وفكر سددته المعرفة والاطلاع. ولو شئت لأطلت ولكن بحسبه هذا منى.

وأشير هنا إلى حادثة أخرى لها دلالتها ــ ذلك أن عميد وزراء الدول فى الحجاز هو الوزير الروسى، وقد كنت أحسبه صينيا فإن به من أهل الصين مشابه، وقد وقف يشكر للأمير دعوته هو وزملاءه إلى هذه الوليمة فى الصحراء، وكان يتكلم بالعربية أو بما يظنه لغة عربية، ويرفع الشكر إلى الأمير بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن زملائه، ولم يُطل فإن من العسير أن يفيض المرء فى الكلام بلغة يخترعها على البديهة.

ولكن ممثل الحكومة البريطانية ـــ القائم بأعمال مفوضيتها فى جـــدة ـــ لم يرضه أن يكون ممثل الروسيا هو عميد الهيئة السياسية والذى ينطق بلسان أعضائها مخافة أن يتوهم العرب أن الروسيا مقدمة علـــى انجلتـــرا ومفضلة عليها، فاستأذن الأمير فى كلمة يلقيها ثم نهض فأعرب هو أيضا عن شكره للحفاوة التى لقيها والكرم الذى غمره، وقد أشرت من قبـــل إلى هذه المنافسة بين الروسيا وانجلترا هناك، والحق أنها كانت أحيانا تبدو لنا مضحكة، أو على الأصح ممتعة.

ولكل شىء آخر، حتى الخطب والقصائد، وقد تنفسنا الصعداء حـــين رأينا الأمير ينهض وقلنا هذا إيذان بالأوبة إلى جدة، والراحة ولكنهم خبأوا لنا مشهدا لا أحسبنى أنساه ما حييت، فقد ساروا بنا بين النجد النظامية إلى العراء، وهناك وقف الأمير وأومأ إلينا فدنونا منه ورأينا صفين مـــن البـــدو النجديين ثيابهم شكول، وأكثرها زاه براق، وفى يسراهم البنادق وفى يمناهم السيوف مصلته وبين الصفين أربعة يروحون ويجيئون وأمامهم عبد يضرب بالدف؛ وهو يطول ويقصر؛ ويتثنى ويتعوج، ويميل يمنة ويسرة، ويقوم ويرقد ويتمرغ على التراب، والدف فى يسراه، وفى اليمين عصا صغيرة ينقر بهـــا، والأربعة وراءه يترنحون، والصفان على الجـــانبين يتوثبـــان، والمســـدسات والبنادق ينطلق منها الرصاص فى الهواء، والسيوف تلمع، ومع ذلك كلـــه غناء أو شدو أو تهريج لا أدرى، بكلام اعترف سمو الأمير نفسه أنه لا يتبين ألفاظه، وقد أذكرنى ما رأيت حلقات الذكر فى مصر، ولكن الـــذاكرين فى مصر يلهجون بأسماء الله، أما هؤلاء فقيل لى إن الغـــرض مـــن رقـــصهم بالسيوف والأسلحة والدفوف تحميس الناس ليخرجوا للقتال.

قالوا، ولا موجب لهذا التحميس ولكنها عادة بدوية قديمة مثلوها لنا ليمتعونا برؤيتها، وكان الواحد من هؤلاء البدو ربما خلع عقاله و«حزامه» ورمى بهما فى الهواء ورماهما برصاصة وتركهما يهبطان إلى الأرض، وقيل لى فى تفسير هذا، أن يخلع عليه الأمير جديدا عوضا عن القديم الذى أطلق فيه الرصاص ويبقى العقال ملقى على الأرض – حتى يقول له الأمير ارفعه عنها وهذا عندهم وعد – غير قابل للإخلاف – بأن يخلع عليه سواه.

وظللنا هكذا لا أدرى كم! وأحر بنا أن لا نحس كر الوقت ومر الساعات ونحن نرى هذا المنظر الساحر ونسمع الرصاص ينطلق أمامنا وفوق رؤسنا، ولا أكتم القارئ أن الخوف لم يفارقنى لحظة، وأنى لم أذهل عن نفسى ثانية واحدة، وأعترف أنى كنت أخشى أن يصيبنى سوء – أعنى رصاصة وأشهد لنفسى بالأدب فقد كنت لا أزال كلما تنحى ممثل انجلترا ليفسح لى مكانا على جانبه فى الصف الأول أؤكد له أنى أستطيع أن أرى من تحت إبطه، وإنى... لا أقبل فى حال من الأحوال أن أحاذيه أو أرفع نفسى إلى مقامه، فكان يشكر لى تواضعى ويؤكد لى أنه سعيد بجيرتى، وأنه معجب بذلاقة لسانى وقدرتى على الرطانة، فكنت أقول له:

«ياسيدى الوزير، إنى عربى الأصل فى الحقيقة وهذه البلاد بلادى فى الواقع، فأنا لست هنا ضيفا ولا يجوز لابن البلاد أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه».

وأتراجع خطوة، وأجعله أمامى، وأتخذ منه – بهذه الحيلة – مجنا دون الرصاص الذى أتقى أن يصيبنى، وقد صارحته بالحقيقة ونحن راجعون وقلت له: «إن إنجلترا غنية بالرجال فهبك قتلت فإن إنجليزيا

يروح وآخر يجيء، وليس الذاهب بأفضل من الآتي ولكنه ليس فى مصر — ولا فى جزيرة العرب على ما يظهر — سوى مازنى واحد، وهذا غريب، فقد كنت أتوقع أن يخرج لاستقبالى والحفاوة بى وفد من عشيرتى، ولكنى لم أسمع أن واحدا من بنى مازن انحدر إلى الحجاز لهذا الغرض، وأسر إليك أنى أخشى أن يكون ابن السعود قد فتك بهم».

فدهش وقال لماذا؟

فخفضت صوتى جدا، وشببت عن الأرض لأهمس فى أذنه «أن قومى عفا الله عنهم — من أهل التخفيف».

قال: «ماذا نعنى؟ فانى لا أفهم».

قلت: «أعنى أنهم من ذوى المروءات».

وقال: «وهل يفتك بهم ابن السعود لأنهم من ذوى المروءات»؟

قلت: «ان ابن السعود يكره هذا الضرب من المروءة» قال كيف؟ لماذا؟

«قلت إن اللغويين أعداء قومى — ألد أعدائهم — يسمون المروءة قطعا للطريق، والتخفيف عن الناس سطوا عليهم، وابن السعود وهّابى أى على مذهب اللغويين — سوء تعبير أو خطأ فى الوصف كما ترى، وأخشى أن يكون قد جر على قومى وبالا فهل لك فى حلفى»؟

قال: «حلفك»؟

قلت: «نعم، تحالفنى على ابن السعود. إذا ثبت أنه أوقع بهم».

فالتفت إلى بسرعة وقال: «أتتكلم جادا؟ فلست أكتمك انى مستغرب حديثك وإنى لا أكاد أفهم شيئا»!

وهنا أدركنا واحد فوضعت أصبعى على فمى، ولكن «الواحـــد» لمحنى فقال للوزير.

«أنا واثق أن حديث المازنى قد حيرك».

فقال الوزير ـــ أو القائم بأعمال الوزير على الأصـــح ـــ «هـــذا صحيح. لقد كاد يجرنى إلى حرب ابن السعود، مـــن أجـــل قـــضية لا أفهمها».

فقال «الواحد» ـــ «ألم أقل لك؟ فماذا كان يقول»؟

فتركتهما يتذاكران وارتددت إلى زملائى فصاحوا بى:

«يا أخى أين كنت»؟

قلت: «لماذا؟ ألست أمامكم»؟

قالوا: «إن الأمير قد تفضل ودعانا إلى خيمته ليودعنا على انفراد، ولنا ربع ساعة نبحث عنك».

قلت: «حسنا فعلتم، تفضلوا».

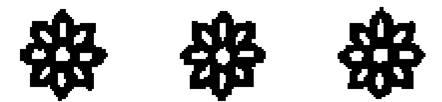
وسرت أمامهم إلى الخيمة ثم تنحيت لزكى باشا فان شيبته أضوأ من شيبتى، وأنا رجل لا يكابر فى الحق، فتلقانا الأمير ـــ ومعه فؤاد بك حمزة مدير الشئون الخارجية ـــ بالتأهيل والترحيب، وأعرب عـــن ســـروره بزيارتنا للحجاز ويقينه أنها ستؤدى إلى توثيق العلاقـــة بـــين الـــشعبين الشقيقين.

فقال زكى باشا: إن العادة تثبت من مرة واحدة. فقال سموه: إنهـــا لكذلك، وإنى لأرجو أن أراكم فى كل عام على الأقل مرة.

وذكر بعضنا المدينة وأنه يحب زيارتها، فقال سموه إن الأمر فى ذلك لكم، فإذا شئتم أن تتخلفوا أياما أخرى فإن الزيارة سهلة، ولكنها تكون شاقة ومتعبة إذا أردتم أن تدركوا الباخرة التى تبارح جدة يوم السبت، فاختاروا ما شئتم.

فشكرنا له ظرفه وحسن مجاملته وكرمه واعتذرنا بأن أعمالنا فى مصر لا تسمح لنا بطول التغيب، ورجونا أن تتاح لنا فى العام المقبل فرصة العود إلى مثل هذه الزيارة، وأفضنا فى الإشادة بما شاهدناه من دلائل التقدم وأمارات الإخلاص فى ترقية الأحوال وتحسين الشئون وقلنا، وقيل لنا كلام كثير نسيت أكثره ثم تفضل سمو الأمير فخرج معنا من الخيمة ليرسمنا رياض أفندى حافين به.

ثم سلمنا وعدنا إلى جدة. وكان هذا ختام الحفلات الرسمية.



# فى بيت العوينى

فى بيت العوينى، عرفت العوينى، أعنى أنى استطعت أن ألمّ بطرف من الصفات والخلال التى أعانته على التوفيق فى حياته، وهو على ما علمت من أسرة سورية وكانت له تجارة رابحة، فلما قامت الثورة السورية أمدها بشبابه وماله وتدبيره، وكان أشبه بزعيم محلي، فقبض على طائفة من رجاله. قال محدثى — والعهدة فى الرواية عليه — فأصبح يوما فإذا نساء الحى يصرخن ويولولن ويندبن ويصحن «يخرب بيتك يا عوينى».

فخيف أن يفضى ذلك إلى اعتقال الباقين وإلى إحباط التدبير كله، فتولى العوينى الإنفاق على السجناء وعلى أهليهم الطلقاء — أمهاقم وزوجاقم وأخواقم ألخ وأحكم أمره، وسارت الأمور على خير ما يرجى فى مثل هذه الأحوال، وكانت الأسرات التى اضطر أن يعولها كثيرة وفقيرة، فأرقته واستنزفت موارده فلم يسعه إلا أن يصفى تجارته — أو ما بقى منها — وأن يرحل.

فقصد إلى الآستانة وفى مأموله أن يبدأ حياته من جديد ومكث هناك شهورا ثم ألفى نفسه ينفق ولا يربح فاحتمل حقائبه ومضى إلى جدة وأنشأ فيها وكالة لتاجر سورى كبير، وظل كذلك ثلاث سنوات حتى استطاع أن يقف على قدميه وأن ينشئ لنفسه تجارة مستقلة.

وهو يستورد المتاجر بالجملة ويفرقها على التجار، فاذا جاء يوم الجمعة أنقدوه أثمان ما باعهم، وقد أخبرنى محدثى — ولى به ثقة — أن

متوسط ما يجمعه من التجار فى كل يوم جمعة يبلغ أربعة آلاف جنيه؛ لا أدرى كم يكون ربحه منها، وقد ذكرت ذلك لأعين القارئ على تصور مبلغ النجاح الذى أحرزه والذى يستحق أضعافه، لنشاطه ودؤوبه وكده، وقد كنا نفتح عيوننا فى الصباح ونتثاءب ونتمطى على حين يكون هو قد لبس بذلته «الأفرنجية» ولا ينقصه إلا أن يضع على رأسه الحرام الحريرى الأبيض، والعقال.

ولولا وجودنا وكوننا ضيوفه لكان قد خرج إلى عمله قبل ذلك بساعات، ولكنه كان مضطرا أن يتأخر حتى يفطر معنا، وكنت أعجب بلباقته وكياسته وحذقه فى حثنا على النهوض والإفطار من غير أن يشعرنا أنه قلق على عمله أو أنه يريد أن يخرج ليباشره.

وكان العوينى يبدو لنا كأنه كل شيء: الحكومة والرعية جميعا، فهو الذى يعهدون إليه فى تنظيم كل أمر، ويكلون إليه الإشراف عليه، ويعتدونه مسئولا عنه فما احتجنا إلى شيء إلاّ قلنا أين العوينى؟ ولا أرادت الحكومة شيئا إلا قالت: هاتوا العوينى، ولا ناقة له فى ذلك كله ولا جمل، ولكنه النشاط وحسن التدبير والسرعة الرائعة فى إنجاز الأمور، وحضور الذهن، واتقاد الخاطر.

وكان يساكنه شاب آخر فى مثل سنه أو أقل ــ بل هو أصغر على التحقيق ــ اسمه إبراهيم أفندى شاكر حسبناه أول الأمر أخاه ثم عرفنا أنه صديقه ووكليه، وهو حجازى صميم كان سكرتيرا خاصا للملك السابق على بن الحسين، وإبراهيم أفندى كصاحبه العوينى فى النشاط والرقة، ولكنه ساكن وادع الطائر طويل الصمت، يمر بك كالنسيم

الوانى، والنظرة إلى وجهه تنعش الروح وتحيى النفس، والجلوس معه يشيع فى صدرك الطمأنينة والإحساس بالراحة التامة، وهو مع سكونه دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يتأفف ولا يكون إلا مفتر الثغر.

وفى بيت العوينى أيضا كان من حظى أن عرفت خالد بك الحكيم، وكان يلبس جبة وقفطانا، وعلى رأسه الحرام والعقال؛ وهو رجل ضخم عليه مهابة ووقار، وفى عينه التماع عجيب ولحديثه سحر، وهو سورى من كبار المجاهدين، تخرّج فى المدرسة الحربية فى الآستانة وخاض حروبا شتى فى أوربا وآسيا وأفريقية ـ طرابلس ـ وكان مع جيش ابن السعود الذى فتح الحجاز، ويسمونه «الغطاس» لأنه يكون اليوم معك وتفترقان على أن تلتقيا غدا، وإذا به غدا فى الشام أو اليمن أو بمباى، ولا يدرى سواه أى طريق سلك، ولا علم لأحد بما كان ينوى، وهو بكل بلد أعرف من أهله وأنفذ بصيرة فى حاضره ومستقبله، والعشرة من أمثاله يعادلون أمة، ولقد لقيته بعد ذلك فى مصر فما ازددت إلا إكبارا له وإيمانا به، إكبارا لقوته الصامتة وجلده على الحياة وتواضعه المحبب وإخلاصه وصراحته، وإيمانا بعظمة روحه.

وفى بيت العوينى جاءتنا هدايا الأمير، وكان صديق لنا قد أسر إلىّ أننا سنتلقى هدية فسألته عنها أى شيء هى؟ قال عباءة وعقال وما إلى ذلك، فقلت إذا كانت هذه هى الهدية فمرحبا بها وليعجلوا، فسألنى «وإذا كان هناك غيرها»؟

قلت: «ماذا تعنى»؟

قال: «أعنى أن من عادة العرب إذا حل بهم ضيف أن يهدوا ويهبوا ويصلوا».

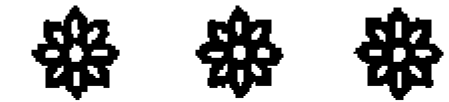
قلت: «أن من المعقول أن تكون هذه عادهم. فإن البدوى فى الحقيقة فقير معدم، وطلبته الطعام والكسوة والمال، فطبيعى أن يكرم العرب الضيف أى أن يطعموه ويكسوه ويصلوه، ولكنا لسنا بدوا — وإنى لأشتهى أن تكون لى عباءة وعقال، ولكن هذا ليس لأنى عار مفتقر إلى الكسوة بل لأنى أعتدّ هذه الثياب قنية تستحق أن تدخر، أما الصلة — أى المال — فبالله عليك إلا ما صرفتهم عنه، لئلا يحرجونا ويحرجوا أنفسهم، فإنى لا أرضى أن آخذ مالا لا أستحقه ثم إنى أستحى أن أرد عطاء أمير، ولكنى سأكون مضطرا أن أرده لأنه لا يسعنى إلا أن أعدّه فى مثل هذا الموقف رشوة أربأ بنفسى وبالحكومة السعودية عنها، وقد بالغت الحكومة فى إكرامنا وأنفقت على رحلتنا هذه بضعة آلاف من الجنيهات ودفعت عنا حتى أجور التلغرافات التى بعثنا بها إلى صحفنا، وهذا كله فوق الكفاية، ثم إن ما شاهدناه كان له وقع جميل فى نفوسنا فلا يفسدوا هذا الوقع بالرشوة، وأنا مقترح عليك بديلا منها: فإنى أشتهى بلح المدينة، المشهور، فاذا كان يسعهم أن يخاطبوا المدينة بالتليفون لترسل إلينا فى «ينبع» قليلا من البلح، فإن هذا يكون خيرا من كل مال».

وقد استشار صاحبى زميلا آخر لى فنصح له بمثل ذلك، فعاد إليهم صاحبنا وحملهم على الامتناع عن وصلنا بالمال، وعلى الاكتفاء بالكسوة العربية والبلح — والكسوة عبارة عن معطف مصنوع من الكشمير وعباءة سميكة من الصوف الجيد محلاة ومزركشة بما لا أدرى، وعقال من الحرير مفضض وحرام من الكشمير، وقطعة من السكرودة. وقد احتجت أن أقصّر هذه الثياب لأستطيع لبسها والانتفاع بها.

وفى «ينبع» ونحن عائدون أبى الأمير إلا أن يستقبلنا كأنا كنا مثلـه أمراء ـــ فى سرادق عظيم ألقيت فيه الخطب وأنشدت القصائد، ثم تغدينا وأكلنا خرافا حقيقية لاشك فيها ولا فى رؤوسها ولا فى أمخاخها، وبلـغ من حفاوتهم بنا أن كان كبار القوم هم الذين يتولون خدمتنا على الطعام.

ثم عدنا إلى الباخرة حيث وجدنا بلح المدينة فى «صفائح» بعـددنا، بل بأكثر من عددنا، ففرقنا مازاد واحتفظنا بأنصبتنا، ورسونا فى «الطور» ساعات وطفنا به وشاهدنا ما فيه من البنى والمعدات الوافيـة، ثم عـدنا بسلامة الله.

ولكن رحلتنا ونحن عائدون كانت فاترة، فقد كان ينقصنا نبيه بك العظمة وخير الدين أفندى الزركلى، فقد تخلفا فى جدة.



# خاتمة

العرب أمتان فى أمة، أو هم على الأصح ثلاث أمم: واحدة تعيش فى الحواضر على نحو ما تعيش أمثالها فى كل بلاد العالم وهذه خليط من شعوب شتى، فيها المصرى، والسورى، والفارسي، والهندى، والجاوى... ألخ، وقد لقيت فى جدة ومكة كثيرين من التجار والأعيان علمت منهم أن أصولهم مصرية وأن لبعضهم فى مصر أقارب ومصالح وأملاك، وحدثنى كبير فى الحكومة السعودية أنه عنى بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالى فعرف نحو مائتى أسرة مصرية استوطنت الحجاز واستقرت فيه من زمن بعيد أو قريب، ولكن الشباب المصريين هناك قليلون، وهم فى حكومة الحجاز يعدون على الأصابع. ولهذا عدة أسباب منها أن السوريين، وهم أقرب إلى بلاد العرب وأوثق بها صلة ــ زاحموهم فغلبوهم، وللسوريين آمال قومية يعتمدون فى تحقيقها ــ فى جملة ما يعتمدون عليه ــ على السعوديين، وقد انتفع السعوديون بالمهندسين والضباط وغيرهم ممن تلقوا علومهم فى معاهد الآستانة وشردهم عن سوريا الأحوال السياسية، ودفعت بهم مساعيهم القومية إلى الصحراء، وبين السوريين من ليسوا من الأوساط العاديين، وإنما هم من ذوى الصلابة وأولى العزم والقوة فلا بدع إذا غلبوا المصريين القليلين الذين ذهبوا فى السنوات الأخيرة فلم يجدوا ما كانوا يأملون من الغنى السريع أو الرزق الوافر أو غير ذلك فعاد أكثرهم، ومصر أرقى حضارة من

سورية، والترف فيها أوفر والحياة فيها أنعم، ولهذا كان السورى لا يحس فى الحجاز أنه نزل عن شيء من مظاهر حياته على خلاف المصرى الذى لايجد هناك ما خلفه فى وطنه من المناعم والملاهى، على أنى لست فى مقام التقصى للأسباب التى أدت إلى ضعف العنصر المصرى فى الحكومة الحجازية وإنما أردت بما ذكرت أن أبين أن لهذا أسبابا معقولة.

والأمة الثانية: القبائل المقيمة على المياه الثابتة وهذه تشتغل بالزراعة إلى حد ما، وبالرعى وبقليل من الصناعات الساذجة، ومواطن هذه القبائل ثابتة. ومحلاتها وعشائرها وبطونها وأفخاذها تكاد تكون مضبوطة الحدود على العموم — ومن هذه تخرج أمة ثالثة هم البدو الرحل الذين لا يستقرون فى مكان ولا يزالون يتحولون من هنا إلى هناك.

وقد أدرك ابن السعود بفطرته الذكية أن هذه البداوة هى آفة الأمة العربية وعلمته التجارب أن البدو لا خير فيهم فى حرب ولا فى سلم. فهم فى الحرب لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقعة السلاح أو صوت الرصاص حتى ينفضوا أيديهم من القتال ويذهبوا يعدون وراء الجمال وما إليها ليغنموها، ومن أجل هذا كان يعتمد فى حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو. وكان يقدم البدو فى المعارك ويضع جيشه النظامى وراءهم ليمنع البدو أن يفروا وراء المغانم والأسلاب قبل أن تنتهى المعركة. أما فى السلم فهم عالة عليه وعلى حكومته لأنهم لا يحسنون صناعة أو زراعة. وما دام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها إلى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق أن يستقر فى مكان. ولهذا فكر فى تحضيرهم وإخراجهم من هذه البداوة فانتقى لهم المواقع التى يكون فيها الماء وحفر لهم الآبار وأوسعها أو أصلحها وألزمهم أن يبيعوا

خيلهم أو جمالهم وأن يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له أن يجعل منهم أمة وأن ينظم أمورهم وأن يقيم الحكم فيهم على قواعده الصحيحة وأن يعلمهم ويثقفهم. وتسمى هذه المواقع التى أختارها لهم وألزمهم الإقامة بها والعمل فيها «الهُجَر» بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة، وذاك أعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها.

وعلى هذا النحو العملى يحل ابن السعود مشاكله العديدة، فالحجاز مثلا ـــ على حضارته نسبيا ـــ صحراء جرداء، والماء أكبر ما يحتاج إليه وأول ما ينقصه، وقد كانت فيه آبار وعيون كثيرة هدمها الأتراك وخربها الأشراف ـــ كل بدوره ـــ وكانت قرب جدة بئر الوزيرية وهذه وحدها كانت تكفى جدة، وقد ذهبت معالمها ودرست آثارها ولذلك جاءت الحكومة لينبع وجدة بآلات لتقطير مياه البحر واشترت أخيرا آلة كهذه لجدة تقطر فى اليوم مائة وخمسين طنا من الماء، وأصلحت الصهاريج التى تخزن بها مياه الأمطار، ومضت تجدد الآبار الدارسة وتكشف عن العيون التى سدت أو خربت ووجدت أن الآبار قليلة الغناء لأنها تجف وتنشف فى بعض الفصول فاتخذت الآبار الارتوازية وجلبت الآلات لاستنباط الماء من جوف الأرض، ومما يذكر فى هذا الصدد أنها استدعت اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع التى يحسن اتخاذ الآبار الارتوازية فيها. غير أن معداتهما لم تكن كافية، فعادا، وقد أوصت الحكومة السعودية باستدعاء اثنين من المهندسين الغربيين والمرجع أن يكون اختيارهما ممن لهم خبرة بالجزائر لتشابه طبيعة البلدين. وعملت الحكومة على إصلاح عين زبيدة بإنشاء خزان ومد أنابيب، وهى تبنى خزانا كبيرا آخر لجمع مياه

المطر يسع مائة ألف طن، وموقعه لا يتطلب نفقات كبيرة لأنها اختارته فى مكان تحيط به الجبال من ثلاث جهات فالحاجة لا تدعو إلى البناء إلا من ناحية واحدة.

ومن أجل الماء تعفى الحكومة كل الآلات التى تتخذ لاستنباطه من الرسوم الجمركية. وكذلك آلات الزراعة بل هى تسقط أثمانها على الأهالى تشجيعا ومعاونة لهم. ومن أجل الماء تعنى بالتعليم الهندسى، ولذلك أرسلت إلى الآستانة طالبا يتعلم الهندسة، وبعثت إلى برلين بآخر. والحجاز كمصر ينبغى أن يكون بلاد الهندسة والمهندسين البارعين.

ولما كانت البلاد صحراء والمسافات فيها طويلة. فقد اتخذت الحكومة السيارات وشجعت على اقتنائها وقد دخل السعوديون الحجاز وليس فيه سوى سيارة واحدة يملكها الملك حسين السابق، وفى الحجاز الآن ألف سيارة ومائتان، والبريد ينقل بين جدة ومكة. وبين جدة والمدينة على السيارات مرتين فى اليوم. والشرطة يتخذونها للمرور والعسس، والجند كذلك للانتقال والحمل، وقد بدأ استعمال السيارات بين الحجاز ونجد. ولابد لذلك كله من الأمن وإلا فسد الأمر كله. ومن هنا قسا ابن السعود فى أول الأمر فصار يقطع يد السارق فازدجر اللصوص وقطاع الطرق. وأدب العشائر التى تسطو على الحجاج، فساد الأمن وصار مضرب الأمثال بلا أقل مبالغة. وقد رأيت بعينى رأسى شواهد رائعة وأدلة مدهشة.

ومن أجل طول المسافات وتقاذف الأبعاد اتخذت الطيارات واللاسلكى فضلا عن التلغراف السلكى المعتاد، وللاسلكى الآن أربعة عشر مركزا. وقد أنشأت الحكومة مركزا جديدا فى جزيرة دارين. وهم

ينشئون شبكة لاسلكية لها ثلاثة عشر مركزا ثابتا للتغـراف والتليفـون اللاسلكى وذلك لتوصيل الرياض، ومكة، والمدينـة، وكـل مركـز فى الألوية والأقضية.

ولم يتخذوا القطر البخارية لأن تكاليفها باهظـة لاتقـوى عليهـا الميزانية. ولأنهم من ناحية أخرى يحرصون علـى أن لا يقطعـوا أرزاق الجمّالة، على أنهم فكروا فى إنشاء خط كهربـائى بـين جـدة ومكـة وأصلحوا الطرق وعبدوها وكبسوها بواسطة «وأبور الزلط» كما نسميه فى مصر.

ومن أجل الحج واتقاء لتفشى الأمراض أنشأوا فى مكة مستـشفى يسع مائتى مريض وجعلوا فيه أقساما للجراحة والأمراض الباطنية وغـير ذلك؛ ولهم الآن عشرون طبيبا حجازيا. وأقاموا محطة للحجاج فى بحـرة بين جدة ومكة وفيها مستشفى، فضلا عن المحطات الأخـرى للراحـة، وأصلحوا الكرنتينة ورتبوا دوريات صحية وبنوا المظلات، فى عرفـات ومنى وجهزوها بالماء والثلج وأقاموا فى كل منها طبيبا وممرضا. والحكومة تلقح الناس ضد الجدرى. وقد أنشأت معملا للحصول علـى مـصول الجدرى، والكوليرا، والتيفوئيد. وأرسـلت بعثـات طبيـة للخـارج. واستعارت طبيبا هولنديا وبدأت توسع مستشفى جدة.

وقد حقنا بمصلى الكوليرا والتيفوئيد قبل سفرنا من السويس، ولكن هذه الأمراض لا أثر لها هناك على الأقل فى هذه الأيام وعلى أن مصلحة الصحة المصرية تعلن منذ سنوات أن الحج نظيف.

أما من حيث التعليم فللحجاز بعثة فى مصر مؤلفة من خمسة وعشرين تلميذا وطالبا فضلا عن البعثات الهندسية والطبية التى أشرنا إليها. وقد أنشأت الحكومة مدارس أولية وابتدائية فى جدة ومكة والمدينة وينبع وغيرها ومدرستين ثانويتين فى مكة وأخرى فى المدينة. وأربع فى جدة. وهذا غير المعهد السعودى فى مكة وغير مدرسة المطوفين التى أنشأها ـــ كما أنشأنا فى مصر مدرسة الأدلاء والتراجمة، وغير المدارس الدينية التى لا تعد مدارس حديثة.

وبهذه الطريقة العملية يحل ابن السعود مشاكل بلاده؛ ويعالج ترقيتها. وقد تبدو الخطأ قصيرة ولكنها مناسبة لحالة البلاد وتعداد أهلها. والمال هو العقبة الكبرى ولكن الحكومة لا تتعجل ولا تذهب إلى إثقال كاهل الناس يالضرائب من أجل ذلك، وشعارها، أن «العجلة من الشيطان».

ولكن خطاها وطيدة مستمرة. كخطا السلحفاة التى سبقت الأرنب، والأرنب عندى هو مصر.

ولقد عدت من الحجاز وأنا مقتنع بأن مصر إذا ظلت تتخبط وتولى الشئون السياسية هذا الحظ الباهظ من رعايتها على حساب المرافق الجدية والمراشد الحيوية. فسيسبقها الحجاز بلا أدنى ريب.

تمت بحمد الله

❋ ❋ ❋

# الفهرس

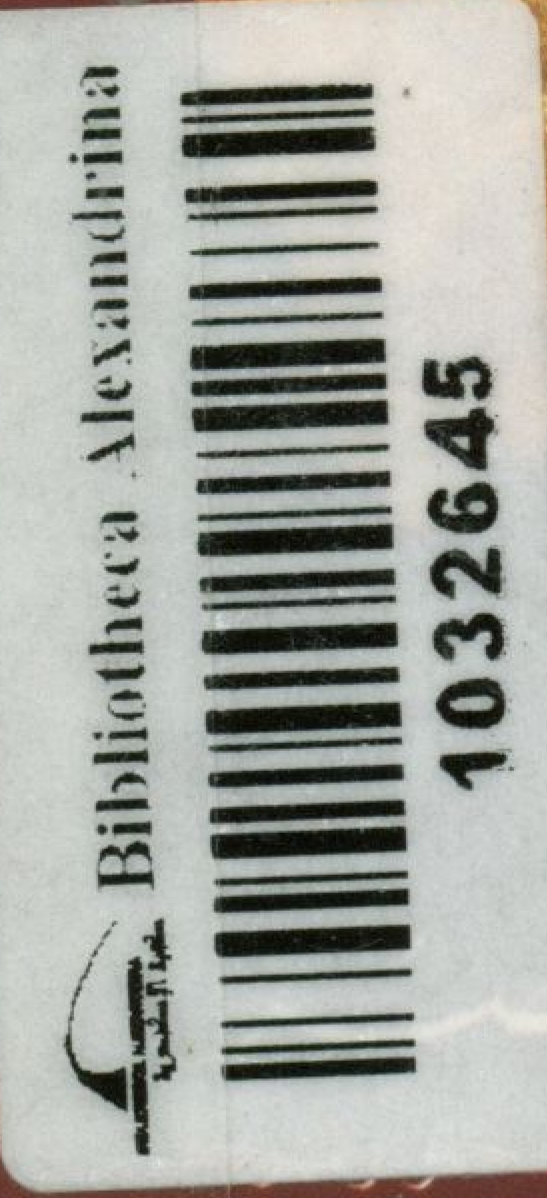
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٤٦٨٥



إبراهيم عبد القادر المازني



# رحلة الحجاز




مكتبة مص
سعيد جودة السـ
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
تليفون : ٢٥٩٠٨٩٢٠